الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد العاشر ٦ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ١٥ يونيه سنة ١٩٣٧ السنة الأولى

فهرس العدد

صفحة			
٥٨٦	إكسوس ومكربا	أسطورة إغريقية	بقلم أحمد حسن الزيات ... ...
٥٩٣	المثال	أقصوصة فرنسية	بقلم الأستاذ ابن عبد الملك ... ...
٥٩٧	يوميات نائب فى الأرياف ...	صور مصرية	بقلم الأستاذ توفيق الحكيم ... ...
٦٠٣	الزوجة	لواشنجطون ارفنج ...	بقلم الأديب حسين محمد كامل ... ...
٦٠٨	المريض	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ...
٦١٦	وتفضلوا بقبول احترامى ...	لسالتيكوف	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ... ...
٦٢٠	جزاء الاجتهاد	لرتشارد جارنت	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى ... ...
٦٢٦	الذراع القابلة	لتوماس هاردى	بقلم نظمى خليل ... ...
٦٣٣	اعترافات فتى العصر	لألفريد دى موسيه ...	بقلم الأستاذ فليكس فارس ... ...
٦٤١	الأوذيسة	لهوميروس	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...

أسطورة إغريقية تمثل الفضيلة والشعر

أكسوس ومكريا

للشاعر الفرنسي هيجيسيب مورو

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

في ذات يوم لا أذكر من تاريخه إلا أنه كان لعامين من موت هرقليس، كانت مدينة (دلفي) تموج بالناس وتمج بالضوضاء وتزخر بالفتوة. كان ذلك اليوم آخر أيام الألعاب الفيثونية؛ ومن أعجب الأشياء أن الصراع والسباق كانا يجريان على غير مشهد من أحد، والرياضيين والسواقين كانوا ينتصرون على غير علم من إنسان، حتى قيل إن الشاعر سيمندس كان ينشد رائع الشعر في الفرس المجلّي ولا يستمع إليه يومئذ إلا بطله! ذلك لأن كلمة واحدة طار بها السماع فطارت بالقوم من ميدان اللعب إلى معبد أبولون:

« هاهم أولاء أبناء هرقليس! هاهم أولاء أبناء هرقليس!»

ومن في الناس لا يضحي بمقعده في الملعب ليرى أبناء هرقليس سيد أبطال الأغريق؟ وكانت أثينا منذ شهر قد استيقظت ذات صباح فوجدت هؤلاء الأبناء مخلوعين مضطهدين مشردين يتهافتون في الساحة العامة على مذبح الرحمة فثارت بها الحفيظة لشكواهم، وتزت فيها القلوب والسيوف لبلواهم، ثم بعثت بهم في هذا اليوم على رأس السفارة المقدسة إلى دلفي يستنبئون آلهتها عن مصدر هذه الحرب

ودلفي كما تعلمين[1] مدينة مقدسة تفيض جوانبها بالعجائب، والناس يمرون عليها وهم عنها معرضون، وأنا كأولئك الناس في هذا اليوم لا أريد أن أنتقل بك من البرناس إلى الهيبدروم، ولا من الهيبدروم إلى منصة أبولون، فإنك ولا شك حججت إلى هذه الأماكن منذ طويل في (سياحة أنا كرسيس)، وأنا — ولا أخفي عنك — مشوق كذلك إلى رؤية أشبال هرقليس

كان الشعور الذي استولى على الاغريق لدى رؤيتهم أولئك الأبطال يترجم عنه هذا الهتاف الأجماعي الصاخب: « يا للآلهة الخالدين! ما أوفى القوام وما أصلب العضل!» وكان في الجمع شيخ سبط العظام، تحسبه وفي يده عصاه المذهبة وعلى جبينه عصابته البيضاء، ملكا من ملوك الأغريق المشرين، مال على كاهن من كهنة أبولون، وهو يجتاز المعبد حاملاً مبخرة من مباخر العطور، وقال له في صوت خافض:

— لقد عرفت هرقليس وزوجه ديجانير حق المعرفة، فما عرفت لهما غير ثلاثة بنين؛ فمن إذن هذه العذراء المنتقبة التي تجلس مع

(١) يوجه الكاتب الحديث إلى صاحبته التي دعاها أخته، وكتب إليها طائفة من الأقاصيص عنوانها (أقاصيص إلى أختي) Contes à ma soeur وهذه إحداها

أبنـاء هرقليس على مقعد واحد ؟

— كلامك يا أبي الحق لا مرية فيه ، فليس لهرقليس من ديجانير غير ثلاثة بنين ، ولـكن له من زوجته الأخيرة (يول) . . . .

— فقاطعه الشيخ قائلاً : صحيح ! ثم ضرب على جبينه بأصبعه علامة التذكر وقال : لقد روى لى (فيلوكتيت) هـذا الحديث عشرين مرة ؛ ولـكن قرنين من الزمان يدوران على الرأس لا بد أن يضمضما فيه الذاكرة : نعم أذكر الآن أن هذا الزواج أعقب بنتاً . . . فارتفع من وراء الشيخ صوت ندىٌّ عذب بهذه الجملة :

— بنتاً وابناً يا أبي

فالتفت الشيخ فرأى يافعاً شاحب اللون هش العظام فى زى أهل الأرجوليد يردد فى احتشام وخجل :

— بنتاً وابناً وهما إكسوس ومكريا

فتبسم الشيخ ضاحكا من الغلام ، وقال للـكاهن : أنظر ! فى (بيلوس) يهتف النـاس بعلى ، وفى (أرجوس) يرسلون إلىّ تلاميذهم ليعلموني ...

ثم قال للغلام : من الذى أنبأك هذا يا بنى ؟ وماذا تسمى ؟ ولـكن الفتى لم يتحمل ملاطفة نسطور (وهو الشيخ) فأفلت منه وغاب فى زحمة الناس دون أن يجيب

وكان ذلك الهتاف لا يزال يدوى فى الفضاء لا يعتريه فتور ولا يناله تغير :

« يا للآلهة الخالدين ! ما أوفى القوام وما أصلب العضل ! » ولعلك تعجبين لهذا الاطراء ، وتحملينه على محمل الاستهزاء ، ولـكنك تذكرين أننا فى بلاد قسمتها طبيعة الأرض ومطامع الناس إلى عشرين دولة صغيرة ، يتضارب أقيالها الصيد من شـدة الزحام بالمرافق والمناكب . وكان العرف الدارج فى الأمم القديمة أن يقتتل الناس رجلاً لرجل ، وجسما لجسم ، فجعلوا قوة البدن جماع القوى وملاك الفضيلة ؛ وكانوا يتوسمون مخايل الـكفاية والفضل فى قبضة اليد وقوة الـكتف ، كما نتوسمها نحن اليوم فى أسرار الجبهة ولمحات العين ؛ وحسبك أن هرقليس رمز القوة ومثالها كان إلـهاً !

تأخر ظهور الـكاهنـة الوسيطة التى يتكلم بلسانها الآلـه (La Pythie) ولـكن أحداً لم يسمع هنين السأم ، ولم يلمح عبوس الانتظار ، لأن الجمهور كان يجد فيما يرى غذاء لفضوله وريا لشوقه : كان يرى هلـوس بكر هرقليس وأكبر الأخوة ، وهو محارب عملاق عارى الذراعين مجدول العضلات مطهم الوجه ، فيجده وعلى منكبيه جلد الأسد ، وفى يده الهراوة العقداء ، أشبه بأبيه من الليلة بالليلة . ثم يرى أنتينور وهو سوغ[1] هيلوس وأدق منه ملامح وأرشق منه قامة . كان يتشح بقداسته الجديدة ، ويبتسم لشباب الأغريق ، ومنخراه منفوخان يتنسمان عبير الاعجاب فى نشوة ولذة . وعلى الجملة كان الآلـه أنتينور شديد الخيلاء والصلف ؛ أما أخوهما (إيجسط) فـكان لا يشبههما فى شىء غير القوة والشهامة . كان وجوده فى هـذا العصر وفى هـذا المصر خطأ صارخاً فى تقويم الزمن . وأعجب شىء فيه أنه كان أشقر الشعر ساهم الوجه منقبض المزاج ، وانقباض المزاج عاطفة عصرية

(١) يقال : هو سوغ أخيه وسيفه إذا ولد بعده وليس بينهما ولد ، وهو بالفرنسية (Puîné)

مسيحية . ثم كان يرجع من المعارك الدامية الشعواء إلى الدار عذب الروح حيي الطبع ، كأنه أحد أولئك المحاربين الشقر من أهل الشمال : يصرعون المردة والأغوال ، ثم يطأطئون الهام ويحرمون الكلام أمام عصا ساحرة صغيرة . كان وهو يتحسر على عرش (أرجوس) كأنما يأسى على شيء أعز عليه من عرش ! فالى أين إذن كانت تصعد زفراته وتتبخر دموعه ؟ إلى بيت صديق ، أم إلى قبر أم ؟ عِلْم ذلك عند الله ؛ فان سره لم يسافر عن ضميره إلى أحد ، حتى أخته الفتاة مكريا ، وهي أمينة سر الأسرة لم يفض اليها بذات صدره . وكانت مكريا جالسة إلى جانبه تصلي ...

عفواً يا أختاه [1] ! لقد شغلت بالأبطال عن العذراء ، ولكنها هي اللوعة ! انظري ! إنها مستترة في ظل إخوتها ، كأنها تحرص على أن تغفلها العيون . إنها لم تكشف عن وجهها النقاب بعد ، فقسماتها لا تزال مجهولة ، ولكنك أسلفت لها الحب ولاشك ، لأنك سمعت منذ قليل أنها وديعة تقية

* * *

وأخيراً أعلنوا ظهور الكاهنة الوسيطة ، وكان الوهن لا يزال بادياً عليها من أثر ما أصابها من اختلاج الأعصاب في وساطتها الأخيرة بين الآلهة والناس . فهي تجر نفسها جراً من الأعياء والجهد حتى بلغت المنصة متكئة على كاهنين من كهنة أبولون . حينئذ انفتح في جوف المحراب باب على مصراعيه فاقتحمته هبة عريضة من الهواء العازف ، فقشعت دخان القرابين وهزت الجمع الحاشد فضج الناس قائلين : « الآله ! هذا هو الآله ! »

وعندئذ اضطربت النبية المعذبة في المنصة اضطراب الذبيح ، فخشعت الأصوات وأصغى القوم

بدأت الكاهنة أمرها بالشهيق ، ثم اتبعته بمقاطع من الأنين والضراعة ، ثم انتهت إلى كلمات ذاهلة لا تسفر عن معنى ، ثم تكلم الآله بلسانها فقال :

« إن (منيرفا) ستقاتل . . . ! وعلى خوذتها الآلهية ستصيح البومة : « إني عطشى » ويذهب جهدها باطلاً

تدعو منيرفا إلهة النصر

وإلهة النصر أختها فلا تخذلها . . .

إني أسمعها وهي قادمة تنثر أجنحتها في الهواء . . .

ولكن البومة تصيح : إني عطشى ، وأريد أن أرتوي بالدماء . . .

إن أرجوس تنتظر ملوكها لتؤلههم :

إضطربي وميدي يا أرجوس ! إن البومة في طيرانها السفاح تحوّم في الجو باحثة عن جبهة تقية تضحيها .

إنها تحوم وتحوم ثم تقع على . . . ولد من أولاد هرقليس »

* * *

وفي هذه الساعة الرهيبة العصيبة على أبناء هرقليس ، لم يكن في المعبد من ملك نفسه وضبط حسه غير أبناء هرقليس !

على أن الكاهنة لم تكد تمسك عن الكلام حتى صاح بها هيلوس :

— عيّني الضحية بالاسم

ولكنها كانت تتساقط من الضعف على درج المنصة ولم يبق منها إلا رمق . فقال كبير الكهنة :

(١) يريد الكاتب أخته هو

إن الآلهة كان جبار القلب غليظ الكبد ، فاذا استأنفت التجربة قتلها ولا شك . فليقدم أحد أبناء هرقليس نفسه

فارتفع من بين الجمع ذلك الصوت الرخيم الذى تكلم منذ هنيهة من وراء نسطور وقال : أنا أقدم نفسى ! فقال له الكاهن فى لهجة قاسية : « من أنت ؟ وماذا تسمى ؟ » فأجابه الغلام : « أنا ابن هرقليس واسمى إكسوس »

فانفجر الناس بأصوات الدهش لهذا الجواب المفاجىء ؛ ثم قال قائل منهم يتهكم : « إذا صدق قوله فقد صدق اسمه » وستعلمين ياأختاه أن إكسوس كلمة يونانية معناها العليق ، فكأن أبويه عند ماولد وسماه بهذا الاسم احتقاراً لشكله واستصغاراً لشأنه . والحق أن هذا المخلوق الهش يشبه فى انتسابه الى هذا العرق القوى ذلك النبت الطفيلى الرخو الذى تنبت به الريح وهو قائم على جذوع السنديان

دلف (تينور) إلى الغلام وقال له بلهجة الحانق المتوعد : لقد منعناك أن تتبعنا إلى دافى . . . » ولكن ابنة هرقليس التى ظلت إلى تلك الساعة ساكنة ساكتة محتجبة ، ألقت نفسها بين الأخوين فقطعت من بينهما الشر ؛ ثم أخذت الصغير من يده وخرجت به من المعبد وهى فى صمم عن نداء هيلوس يدعوها إليه ، وفى ذهول عن هتاف الاعجاب الذى انبعث عن يمينها وعن شمالها ، لأن نقابها انحسر من ذات نفسه لسرعة المشى وشدة الحركة ، فبدت مكريا للعيون بارعة الجمال رائعة الحسن لطيفة الروح ، وقد زاد فى جمالها تلك الشفقة التى تجلت فى صوتها وفى عينيها ، والشفقة عاطفة تجمّل القبيح ، فكيف يكون أثرها فى الحسن ؟

* * *

عادت أسرة هرقليس كلها إلى أثينا فى مركبة واحدة ، وقد عقد الأبطال الثلاثة قلوبهم على أن يقترعوا بينهم غداً فى معبد منيرفا ليعلموا أيهم يجب عليه أن يموت . وكان إكسوس المسكين قد جاء فى اختيال ومرح يضع اسمه مع أسماء إخوته فى الصندوق ، ولكنهم منعوه ودفعوه معتقدين أن من الاهانة للآلهة أن يهبئوا للقدر — وهو فى أغلب أمره ساخر عابث — الفرصة ليقدم إليهم هذا القربان الضئيل الأعجف . أما أختهم مكريا فلم يشاءوا أن يعرضوها معهم على رغبة الموت لسبب آخر غير سبب اكسوس : لقد كانت خطيبة (ليكوس) وهو زعيم من زعماء أثينا ذوى الرأى المسموع والأمر النافذ ، (وأثينا هى التى غضبت لهم تلك الغضبة وشهرت دونهم السيف) فهم يحرصون لسبب سياسى أو أدبى على ألا يقطع الاستعداد للتضحية الاستعدادَ للزفاف . لذلك وجدت مكريا عرفتها بعد عودتها تضوع بعبير الألطاف والتحف التى قدمها (ليكوس) ، ولكن نفسها وهى تتسلف الحداد على أخ من إخوتها لم يهزها كرم الهدايا ولم يسرها جمال التحف . على أنها رأت إكليل الزفاف مصوغا من الزنبق الجميل النضر ، فحملته ووضعته على جبينها من غير إرادة ولا وعى . وفى هذه اللحظة سمعت من خلفها زفيراً يتصعد فى ضعف ، فالتفتت فاذا هى ترى إكسوس ! إكسوس أخاها الذى جمعت له فى قلبها الأم والأخت فى وقت معاً ؛ إكسوس الذى عنيت به وأشبلت عليه لأنه

عليل الجسم مبذوء الهيئة ، إكسوس الذى لا يخطو فى البيت خطوة إلا بابتسامة من مكريا تبدد بؤسه وتجدد أنسه ، فاذا غابت عن الدار غاب عنه الأنس واستولت عليه الوحشة

كان ينظر إلى الزهور الرمزية والدمع يجول فى عينه ، والهم يعتلج فى صدره ، والألم الممض يرتسم على أسرار وجهه ، فاستطير فؤاد أخته من الخوف عليه ، لأنها تعودت أن تراه يشكو ويتألم منذ اثنى عشر عاماً ، فلم تجده يوماً على مثل هذه الحال من الكمد المقلق واللوعة الأليمة ، فأقبلت عليه تعتذر إليه وتسرى عنه وتقول :

— أوه ! اعف عنى واغفر لى يا طفلى المسكين !

— أنا أعفو عنك وأغفر لك يا مكريا ؟ علام إذن ؟ والسعادة التى غمرت بها قلبى وعمرت بها وجودى ؟

— لا تشكر لى عنايتى بك ؛ ذلك دين أقضيه . . . . . ذلك تكفير أؤديه . . . . .

فانبعثت من عين الفتى المشدوه نظرات ضارعة تسأل أخته حل هذا اللغز . فقالت له : سمعك إلىّ ! منذ أربع سنين (كان عمرك يومئذ ثمانى سنوات وعمرى أربع عشرة) جرت فى أسرتنا حوادث عجيبة وأمور خارقة لم يصل علمها بأبى ولا بأخوتى . لعلك تذكر ذلك الكوخ الذى ينوه على شاطئ البحر ليختفوا فيه من أعين المضطهدين الكثيرين الأقوياء . كنت فيه ذات مساء وكان أبى وإخوتى فى الصيد ، وكنت أنت منهوك القوى من كثرة ماجريت فى الغابة طول النهار ، فاستسلمت على هدهدة المطر والريح لنوم ثقيل ؛ وكان الليل قد أقبل منذ حين وأبى وإخوتى لم يقبلوا بعد ، فسمعت قارعاً يقرع الباب فذهبت أفتحه وفى حسبانى أنى أجد الصيادين والصيد ، ولكنى وجدت عابر سبيل يطلب الدفء والمأوى برهة من الزمن فأدخلته ؛ ثم جلست إلى جانب سريرك ، واشتغل هو بتجفيف ثيابه على نار الموقد . وما كان أشد دهشى حين رأيت نوراً لطيفاً يتلألأ على شعره الأشقر ! عزوت ذلك النور بدئيا إلى انعكاس النار التى فى الموقد ، ولكن الموقد خبا وغرة المسافر ماتزال مشرقة ! حينئذ أدركت أنه أبولون ، أبولون الذى طرد من الأولمب فهام متنكراً فى العالم على وجهه ، ثم بقيت على رغم تنكره بقايا النور من هالته

فخررت جاثية أمامه ، وقلت : ماذا تبتغى منى أيها الإله المظيم ؟ فقال : « لا شىء غير المأوى . على أن المطر قد كف والجو قد صفا ، فأنا ذاهب وسأقبلك قبلة الوداع » فتقدمت واجفة القلب ، مضطربة الحواس إلى عمى ، وقدته من يده إلى مرقدك ، وقلت له : « الأولى أن تلاطف هذا الصبى المسكين فانه لم يظفر بعد بملاطفة إلهه . المس وجنته الذابلة فتنضر ، وانفخ فى شفته الباردة فتحيى » فتبسم أبولون لرجائى ، ودنا منك فنفث فى فمك من روحه ، ولكن نفثته كانت قوية مضطرمة ، فسرت إلى قلبك فأفعمته وأشعلته ! من أجل ذلك كان قلبك يحترق ولا يفتر عن الوجيب ! ومن أجل ذلك كان جسمك يذوى وروحك لا تستجيب . . . وهأنذا وقفتك على جلية الأمر فهل تصفح عنى ؟

فما كان جواب إكسوس إلا أن قبل أخته ، فقالت له : « إن برهان عفوك عنى أن تنقاد لى

وتسمع منى ؟ قل يا قليل الحكمة بأى معجزة نجوت من الموت جوعاً وظمأ فى طريقك الطويل من أثينا إلى دلفى ؟

فقال إكسوس : أوه ! كنت من الصباح إلى المساء أسترجع النشاط بالغناء ، وأستفتح الأبواب بالنشيد ، فكلما دانى الدخان على وليمة فى أحد البيوت طرقت الباب وأنشدت الأغنية فيفتح لى أهله وينزلونى خير منزل

فتبسمت مكريا وقالت : أغنية عجيبة ! هل لك أن تعلمنيها يا إكسوس حتى أغنيها أنا أيضاً فى ذهابى إلى دلفى أو إلى الأولمب ؟

فتمنع إكسوس وتدلل على عادة المغنين فى كل عصر ، ثم نزل على مشيئة أخته بعد رجاء قليل

أغنية اكسوس

إفتحوا ! أنا إكسوس المسكين ، أنا عُلَّيقَةُ السنديانة التى إن تمر عليها هبَّة الريح تَمُت !

منذ اثنى عشر عاما سقط قزم من جلد الأسد الذى يتنكبه هرقليس ، فكنت أنا ذاك القزم ؛ كان أبى لا يحبنى لأننى كنت صغير الجثة رقيق البدن ، وحينما كنت أصطدم بركبتيه وأنا طفل كنت أسمع فوق رأسى زمجرة كزمجرة العاصفة ؛ وكان إخوتى يضربوننى كلما دعوتهم إخوتى ! ومع ذلك أريد أن أعيش لأن لى أختاً تحبنى وتحنو على ، هى الجميلة الكريمة مكريا !

افتحوا ! أنا اكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى ان تمر عليها هبة الريح تمت

— ٢ —

قال لى إخوتى ذات يوم : « اجتهد أن تكون صالحاً لشىء .. تعلم إقامة التماثيل وشيادة الهياكل فلعلنا نصير يوماً آلهة » فحاولت أن ألبى مبتغى اخوتى ، ولكن الأزميل والنحت كانا ثقيلين على يدى ؛ ثم كانت هناك رُؤى غريبة تطوف بينى وبين جنادل (باروس) وكانت إصبعى الناحلة الذاهلة تخط فى التراب اسما لا تخط غيره : اسم أختى الحبيبة مكريا

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى إن تمر عليها هبة الريح تمت

— ٣ —

حينئذ قال لى اخوتى : « إن فى مضيفنا شيخاً من شيوخ الكلدان يقرأ فى صفحة السماء أسرار الغيب وأنباء المستقبل ، فاستمع إليه ، وتثقف عليه ، ثم قل لنا أترى فى مطاوى السحب كنوزاً أو نصراً » فسمعت من الشيخ ؛ ثم قضيت ليالى طويلة أرصد النجوم والغيوم فلا أرى كنوزاً ولا نصراً . إنما كنت أرى عيون السماء تنظر الىَّ نظر الحب ، كأنها عيون مكريا ...

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى إن تمر عليها هبة الريح تمت

— ٤ —

حينئذ قال لى إخوتى : « خذ قوساً ونشاباً واخرج إلى الصيد فى الغاب » فجُبْت الغاب بقوسى ونشابى ، ثم لم ألبث أن نسيت إخوتى وذهلت عن سيدى . وبينما كنت أسمع غناء الرياح وتغريد البلابل أقبلت ظبية فأكلت طعامى من جيبى ، ثم جاء طائر صغير أعياه طول الطيران فنام فى كنانتى ، فحملته إلى مكريا

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى إن تمر عليها هبة الريح تمت

— ٥ —

حينئذ قال لى إخوتى : « إنك لا تصلح لشىء » ثم ضربونى ، ولكننى لم أبك ، لأن فكرى كان مشغولاً بأختى ! وغداً سيأخذون منى مكريا ! وغداً ستسأل وهى جالسة فى حفلة الزفاف : ما هذا الدخان الذى يسطع هناك وراء الغار ؟ فيجيبها المدعوون « لا شىء »

« إنها محرقة إكسوس المسكين ، عليقة السنديانة التى عصفت بها الريح فجعلتها كالرميم »

فصاحت الفتاة وقد ملكها الحنان وأدركها الجزع : كلا إنك ستعيش ! وسأجعلك فى قلبى ، حتى إذا ثارت العواصف الهوج لا يمسك منها أذى . إن (ليكوس) سعيد محبوب ، وعذارى أثينا كثيرات يفتحن له دورهن وصدورهن . أما أنت أيها الفريد الشريد الموجع ، فاليك وحدك كل أيامى وأحلامى وحبى !

« خذ يا أخى ، خذ يا شاعرى ! هذا ثمن أغنيتك » ثم نزعت من فوق جبينها الأبلج إكليل الزفاف وألقته مبللا بالدمع تحت قدمى إكسوس ! فأراد إكسوس أن يجيب ، ولكن التأثر المفاجىء صعق الصبى المسكين فلم يستطع إلا أن يقول بصوت خافت . أوه ! ثم وضع يده على قلبه وخر مغشياً عليه ! ثم بات طول الليل يتضور من شدة الحمى ، وأخته بجانبه لا يغمض لها جفن ، ولا يرقأ لعينها دمع

وكان الغد موعد أبناء هرقليس إلى المعبد ليقترعوا هناك على الضحية ، فتقدموا إلى الهيكل كما يتقدمون إلى المعركة : قلوبهم فارغة من الهم ، ورءوسهم مرفوعة من العزة ، ثم جرت المراسم المألوفة وهى لا تختلف عما رأيناه فى دلفى ؛ وأقبل كاهن من كهنة (مينرفا) فأجال الأسماء فى الصندوق ، ثم تقدم طفل معصوب العينين إلى الأناء المقدس يستخرج منه حكم الموت ، فلم تكد يده تلمس حافته حتى دوى على عتبة المعبد صوت امرأة يقول : « قف ! هاكم الضحية . . »

وكان ذلك الصوت صوت مكريا وهى تتقدم إلى المذبح كاسفة اللون ، كاملة الأهبة ، تنوس على جبينها الأزهر الجميل عصبة الذبيحة . فداف إليها أيجسط وقال : أهنا أنت يا أختاه ! لقد وعدتنى أن تتخافى لتقوى على سرير إكسوس . فقالت وهى تغالب الدمع وتحبس الزفرة : إن إكسوس مات ! وليس الآن ما يمنعنى أن أفديكم بنفسى . ثم تابعت سيرها البطىء إلى الهيكل بين تصفيق الجمع وإذعان الاخوة ، ثم جثت مكريا أمام المذبح ، وعوقت بالاشارة مدية الذابح المجلان حتى تلقى على اخوتها ابتسامها الأخير ؛ ثم أغمضت عينيها ، وأزاحت الغطاء عن ثديها ، وكانت بعد دقيقتين جسداً يضطرب على مذبح الهيكل !

ثم أضرموا النار ، وجعلوا منها لإكسوس ومكريا محرقة واحدة ! وعندئذ رأى الناس شيئاً يصعد من اللهيب الى السماء ، رفرف الأجنحة ناصع الريش رائع الرواء !

وهكذا كانت الفضيلة (مكريا) فى العصور الخوالى تكفل الشعر (اكسوس) وتلهمه . والفضيلة والشعر أجمل ما فى الحياة وأنبل ما فى الانسان

(الزيات)

اقصوصة فرنسية بقلم الأستاذ ابن عبد الملك

كانت مدينة (اتريتا) ذات الصخر الأشهب والحصى الأبيض والبحر الأزرق تستريح تحت الشمس الصاحية ، فى يوم من أيام يوليو الضاحية . وكان منظرها العام أشبه بالهلال قد انتهى طرفا استدارته ببابين أحدهما صغير وهو الأيمن ، والثانى كبير وهو الأيسر ، ثم تقدما فى الماء الساكن نخوض كلاهما فيه ، وارتفعت قمته حتى بلغت مستوى الصخور . وكان قد جلس على شاطئها المديد جماعة من المصطافين ينظرون إلى المستحمين ، واحتشد على مَشرف الكازينو جماعة أخرى قائمة أو قاعدة تعرض تحت أضواء الشمس المشرقة جنة مزهرة من الزينة تسطع فى خلالها المظلات الحمر والزرق مطرزة بأزهار الحرير الملون . وانعزل فى آخر المشرف على طريق النزهة فريق آخر من المصطافين يريدون السكون وينشدون الراحة ، فوقفوا خطاهم الوئيدة على أنغام الموج بعيداً عن زحمة الأجسام وضجة الأصوات . وكان بين هؤلاء شاب معروف نابه هو الرسام جان سومير . كان يمشى ساهما واجما بجانب عربة صغيرة من عربات المقعدين يدفعها الخادم فى هون ورفق ، وقد جلست فى هذه العربة زوجته وهى فتاة فى ريق العمر تسرح النظر الحزين فى جمال السماء وزينة الأرض وبهجة الناس

كان الزوجان يسيران على هذه الحال لا يتبادلان الكلام ولا النظر ، حتى قالت الزوجة :

— لنقف هنا قليلا . فوقفا ، وتقدم الخادم إلى الرسام بكرسى صغير من القماش فقعد عليه . وكان كل من مر بالزوجين الساكنين الساكتين يلقى عليهما نظرة حنان وحزن ، فقد اضطربت الألسنة بأن حادثاً من حوادث الاخلاص والتضحية وقع بينهما ، إذ تزوج الشاب منها على الرغم من عاهتها المزمنة تأثراً من حبها إياه كما يقال . فقال رجل لآخر وكانا جالسين على مقعدين يجيلان نظريهما فى الفضاء :

— كلا ، ليس هذا صحيحاً . أنا أعرف جان سومير حد المعرفة

— إذن لماذا تزوجها ؟ فقد كانت حين الزواج على هذه الهاهة ! أليس كذلك ؟

— نعم هو كذلك ؛ ولكنه تزوجها . تزوجها كما يتزوج الناس حقاً وسفاهة

— وبعد ؟

— وبعد ؟ ليس هناك بعد ولا قبل يا صديقى . الانسان أحمق لأنه أحمق . وأنت تعلم من خصائص الرسامين الزواج المضحك ، فهم يتزوجون على التقريب كل الأمثلة (modéles) ؛ وقد يتزوجون من

الخدينات المجاثر ، ومن السيدات الموهات لأى سبب من الأسباب ؟ لماذا ؟ لا يعلم أحد لماذا ؟ يخيل إلى على العكس بأن طول معاشرتهم لهذا النوع من النساء الفواجر اللاتى يسميهن الناس (أمثلة) جعلهم يعافون جنس الأنثى ، فانهم بعد أن يجالسوهن ليرسموا صورهم على مثالهن يتزوجونهن . اقرأ الكتيب الصادق القاسى الجميل الذى ألفه الفونس دوديه بعنوان (نساء الفنانين)

أما الزوجان اللذان تراهما ، فان الحادث الذى وقع بينهما وقع على صورة خاصة وحال فظيعة

لقد مثلت هذه الفتاة مهزلة ، أو بالحرى مثلت مأساة ألمة . لقد قامرت بكل ما تملك لتربح كل شىء أو تخسر كل شىء . هل كانت مخلصة ؟ هل كانت تحب جان ؟ لا يدرى ذلك إلا الله . ومن ذا الذى يستطيع أن يحدد تحديداً قاطعاً ما فى عمل المرأة من زور وحق ؟ انهن مخلصات دائماً فى ما يبدو عليهن من آثار انفعالاتهن ومظاهر عواطفهن . فهن ساخطات مجرمات مخلصات كريمات لئيمات على حسب ما يجرى فى شعورهن من البواعث والآثار . وهن لا يفترن عن الكذب من غير أن يردن ولا يعلمن ولا يفهمن . وفيهن مع ذلك وعلى رغم ذلك صراحة مطلقة فى الأحاسيس والعواطف اللاتى يظهرنها بأحكام وحلول عنيفة غير متوقعة ولا مفهومة ، تضلل منطقنا فى الرأى والحكم ، وعادتنا فى التعديل والتوفيق . فالمفاجأة والعنف فى عزماتهن يجعلانهن ألغازاً لا تحل ، فنحن لا نبرح نسأل هذا السؤال : « هل هن صادقات ؟ » « هل هن كاذبات ؟ »

ولكنهن يا صديقى صادقات كاذبات فى وقت معاً ، لأن فى طبيعتهن أن يكن صادقات كاذبات على أشد ما يكون الصدق والكذب ، أو لا يكن على شىء منهما أصلا

أنظر الى الوسائل التى يتوسل بها أكرم النساء ليبلغن منا ما يردن ، تجدها وسائل معقدة وساذجة ؛ فهى معقدة بحيث لم تقع فى حدسنا من قبل ، وساذجة بحيث ترانا بعد أن نصبح من ضحاياها لا يسعنا إلا أن تعجب منها ونقول : « كيف ! لقد خدعتنى بحمق وغباوة » . ثم إنهن ينجحن دائماً يا عزيزى ، وعلى الأخص إذا تعلق الأمر بزواجهن . وهاك قصة السيد جان سومير :

كانت الفتاة مثالاً كما علمت ؛ فكانت تجلس فى مرسمه على الأوضاع التى يريدها ؛ وهى بارعة الشكل ظريفة الطبع رشيقة القوام ، فعشقها كما يعشق الانسان كل فتاة على مثالها فى الجمال والفتنة ؛ ثم تخيل أن حبها قد أخذ بمجامع قلبه . وهناك ظاهرة غريبة : اذا ما رغب الانسان امرأة ظن مخلصاً أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها بقية عمره ، ولكنه متى ملكها زهدها ، وان تستطيع الشهوة البهيمية أن تمسكه بجانبها طول الحياة ، فلا بد من شىء آخر هو توافق النفس والطبع والمزاج . ومن واجب الرجل أن ينظر حين تفتنه المرأة : أهذه الفتنة صادرة عن إغراء الجسم ، أم عن جاذبية الروح . وقصارى الكلام أنه أحبها أو ظن ذلك ، فعاهدها على الاخلاص وواعدها على الوفاء ، ثم عاش هو وهى على هذا الأمل . وفى الحق كانت الفتاة ظريفة ، وزاد فى ظرفها تلك الغباوة اللطيفة التى تتصف بها الباريسيات الصغيرات ؛ فهى تثرثر وتهذر وتنطق بالحماقات التى تجعلها الطريقة الغريبة التى تلقيها بها

أشبه بالبراعات الذهنية ؛ وكان لها فى كل لحظة حركات تعتنى بها عين الرسام : فهى حين ترفع ذراعيها ، وحين تبسط يديها ، وحين تنحنى ، وحين تركب العربة ، تربك حركات محكمة مقدرة مناسبة . وفى غضون ثلاثة أشهر لم يلاحظ جان أنها فى حقيقة أمرها تشابه سائر (الأمثلة) ، فاستأجر بيتاً صغيراً فى (أندريسى) ليقضيا فيه الصيف . وكنت هناك ذات ليلة حين أخذت الهموم الأولى تنبت فى قلب صديقى ؛ وكانت تلك الليلة قمراء ، فأردنا أن نجول جولة على ضفة النهر ، وكان القمر يرسل على الماء المرتعد وابلاً من الضوء ، ويكسر أشعته الصفراء على دارات الماء وتيار اللج وعباب النهر البطىء الهارب

كنا نسير على طول الشاطىء نشاوى من ذلك الطرب المبهم الذى تبعثه فينا هذه الليالى الحالمة ؛ وكانت نفوسنا مهيأة لأعمال فوق أعمال البشر ، وقلوبنا مفتحة لحب كوائن شعرية مجهولة ؛ وكنا نشعر بالجذبات والرغبات والأمانى تختلج فى نفوسنا ، فلزمنا الصمت مفتونين بصفاء السماء وطراءة الليلة الجميلة ، وعذوبة البحر التى خيل إلينا أنها نفذت إلى الجسم وغمرت الذهن وعطرته وغمسته فى السعادة

وعلى حين بغتة صاحت جوزفين (وهو اسم الفتاة) قائلة :

— هل رأيت السمكة الكبيرة التى وثبت هناك ؟

فأجاب جان من دون أن ينظر أو يعلم :

— نعم يا عزيزتى

فقالت مغضبة :

— كلا إنك لم ترها ، لأن ظهرك كان إليها

فابتسم وقال : نعم هذا صحيح ، فان الجو قد استولى بجماله علىّ فلم أفكر فى غيره

فأمسكت عن الكلام ، ولكن شهوة الحديث ملكتها بعد لحظة فسألت جان :

— أتذهب أنت غداً إلى باريس ؟

فأجابها :

— لا أعلم

فعاودها الغضب ، وقالت :

لعلك ترى مما يهيج نفسك أن تتنزه وأنت صامت . إن الانسان إنسان لأنه يتكلم ! فلم يجب على قولها بشىء . وفطنت هى بفضل غريزة المكر فيها إلى أنها ستحنقه ، فأخذت تغنى ذلك اللحن المثير الذى آذى الآذان والأذهان منذ عامين ، ومطلعه : كنت أنظر فى الفضاء ... فقال لها مغمغما :

— اسكتى من فضلك ؛ فقالت له محتدة :

— ولماذا تريد أن أسكت ؟ فأجابها :

إنك تفسدين علينا المنظر

هنا حدث المشهد المكروه السفيه بعتابه المفاجئ وحسابه المبتسر ، فاحتقنت الوجوه وانهمرت الأعين ، ثم عادا الى البيت . وكان جان قد تركها تمضى فى ثورتها لا يدفع ولا يهاجم ، لأنه كان يحذر الأعصاب بنشوة هذه الليلة العلوية التى هبطت بها إلى الأرض هذه العاصفة الهوجاء

ومضت بعد ذلك ثلاثة أشهر ، كان الفتى يضطرب اضطراب القنيص فى هذه العلاقة القوية الخفية التى تربطنا بها العادة فى مثل هذه الحالة . كانت الفتاة لا تنفك ترهقه إرهاق المضطهد ، وتعذبه عذاب الشهيد ، فصار يومهما وليلهما شجاراً متصلا لا يخلو من سباب وضرب

وأخيراً صمم على أن تنتهى هذه الحال على أى

وجه وبأى ثمن . فباع رسومه واقترض من أصدقائه بعض المال حتى حصل فى يده عشرون ألف فرنك فوضعها ذات صباح على المدفأة ومعها كتاب الوداع وترك لها المنزل ولجأ الى بيتى

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر قرع الباب ، فذهبت أفتحه فاذا هى فى وجهى لاتكاد تملك نفسها من الحنق والقلق ، فارتبكت أنا ، ودخلت هى ، ورآها هو من بعيد فوقف حتى أقبلت عليه ورمت بين قدميه الغلاف وفيه الأوراق المالية . وقالت فى هيئة نبيلة ولهجة موجزة : هاك نقودك . لا حاجة لى بها . وكانت حينئذ ممتقعة اللون مضطربة البال حرية بأن تأتى كل حماقة ؛ وكان هو كذلك كاسف الوجه محنق الصدر حريا أن يرتكب كل شدة ، فسألها : ماذا تريدين ؟ فقالت : لا أريد أن تعاملنى معاملة البغى ، لقد توسلت إلىّ حتى سكنت إليك ، فأنا لا أطلب إلا أن تبقينى عندك

فضرب الأرض برجله وقال منفعلا :

لا ، هذا كثير . إذا كنت تظنين أنك . . .

فجذبته أنا من يده وقلت له : دعنى يا جان أفعل . ثم تقدمت إليها وأخذت أكسر من غضبها بكل ما عليه الخاطر فى مثل هذه الحال ، وهى تستمع إلى جامدة شاخصة صامتة مصرة . فلما فرغت جعبتى والحال لا يزال على أشده ، لجأت إلى آخر الحيل فقلت : إنه لا يزال على حبك يا صغيرتى ، ولكن أسرته تريد أن تزوجه ، وأنت تعلمين ...!

فأخذتها رجفة قوية وقالت :

— آه ...! آه ! لقد فهمت الآن ! ثم التفتت إليه وقالت : تبغى أن تتزوج ؟ فأجابها فى شدة وحزم :

— نعم . فخطت إليه خطوة وقالت :

إذا تزوجت قتلت نفسى . أتسمع ؟

فهز كتفيه وقال : حسن ! اقتلى نفسك ! فنبست بكلمة أو كلمتين وقد أخذ يكظمها الهم القاتل : أتقول ؟ .. أتقول ؟ .. أتقول ؟ .. أعد ! فقال معيدا : اقتلى نفسك إذا كان هذا يسرك ! فقالت وشحوبها يزداد وحالها تسوء : لست فى حاجة إلى التحدى ، سألقى بنفسى من النافذة . فضحك جان ملء فيه ومضى إلى النافذة ففتحها ، ثم حيا وانحنى ، كمن يريد أن يقدم عليه غيره فى المشى ، وقال : هذا هو الطريق ! تفضلى ! فثبتت فيه نظرها الحائر الطائر لحظة ، ثم جمعت نفسها كمن يريد أن يقفز سياجا فى حقل ، ومرت أمامه وأمامى إلى النافذة ثم اختفت !

* * *

لا أنسى ما حييت ذلك الأثر الذى أحدثته فى نفسى هذه النافذة المفتوحة ، وقد هوى منها ذلك الجسم ! لقد رأيتها فى تلك اللحظة واسعة كالسماء فارغة كالفضاء ، فرجعت القهقرى ، ولم أجرؤ على النظر كأنى خشيت أن أسقط . وتبلد جان فلم يستطع الحراك ولا النظر ؛ وتسابق الناس فأتوا بالفتاة مكسورة الساقين ، فلم تمش على قدميها بعد اليوم . وتقدم حبيبها مبلبل الصدر من وخز الضمير ، منفعل النفس من اخلاص الفتاة ؛ فآواها إليه وتزوج منها

ذلك يا عزيزى حديث هذين الزوجين

وأقبل المساء ، فرغبت الفتاة فى العودة خشية البرد ، فأخذ الخادم يدفع عربة الكسيحة نحو القرية ؛ ومشى الرسام بجانب امرأته وقد مضت عليهما ساعة من الزمان لا اللسان يخاطب اللسان ، ولا النظر يبادل النظر .

(جى دى موباسانه)

يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

٢٠ اكتوبر . . .

قمت فى الصباح بجرد خزينة المحكمة . فالنيابة هى التى من شأنها مراقبة الخزينة ، وعليها أن تقوم بهذا الجرد مرتين على الأقل فى كل شهر بطريق المفاجأة . ويظهر أن كلمة « المفاجأة » وضعت فى اللوائح والتعليمات من قبيل التشويق كما توضع فى الاعلانات ، فهى فى العمل لا وجود لها . وقد جرت العادة أن ينسى وكيل النيابة لكثرة مشاغله هذا الجرد فلا يذكره به إلا الصراف المقصود مفاجأته . فهو الذى يطالب فى إلحاح حضور البك الوكيل للجرد حتى يسدد الخانة طبقاً للقانون . وفى أكثر الأحيان لا يشعر وكيل النيابة إلا وقد فوجىء هو بالدفتر الخاص بالخزينة يعرض عليه مع المحضر محرراً باسمه « نحن فلان وكيل النيابة قمنا اليوم بجرد الخزينة ، فوجدنا بها كذا أوراقا مالية وكذا فضة وكذا أشياء ثمينة وكذا أمانات » فيوقع وهو لم يتحرك من كرسيه وهو يقول : « خذوا إمضاء وخلوا عنى بلا وجع دماغ » . غير أنى أنا شخصياً أنتقل بالفعل وأشاهد الخزينة وإن كنت أوقع آخر الأمر على كل حال دون أن أطيق صبراً على عد النقود التى توضع أمامى . وانتهيت من هذه المأمورية ، وعرجت على مخزن النيابة فى طريقى أفتشه « بالمرة » وهو عبارة عن حجرة تشبه دكان «ألف صنف» فيها من أصناف البنادق والغدارات الريفية والسكاكين والشراشر والمناجل والفؤوس والياط والنبابيت والهراوات و « اللبد » و « البلغ » و «الجلابيب» الملطخة بالدم والطين و «الصدارى» المثقوبة بالرش والبارود ؛ كل عليه رقمه وتاريخ ضبطه ورقم القضية التى ضبط على ذمتها . وعندى أن نظرة واحدة تلقى على مخزن نيابة أى بلد تدل فى الحال على لون هذا البلد وعقليته ودرجة حضارته . ولا شك عندى فى أن مخزن نيابة « شيكاغو » مثلا لا يمكن أن يحوى مطلقاً هراوة أو شرشرة .

وصعدت بعد ذلك إلى مكتبى ، فوجدت حضرة القاضى : « المقيم » فى الانتظار وقد أحضر له الفراش القهوة . فما كاد يرانى حتى صاح :

— خلاص ، الفوضى دبت فى البلد !

فأردت أن أفتح فى أسأله الافصاح ؛ فلم يمهلنى ومضى يقول :

— راحت هيبة الأحكام !

— إيه المسألة ؟

— المسألة ياسيدى أنى أصدرت حكما مدنياً ضد عمدة من الموالين للحكومة وراح المحضر ينفذ عليه ، تعرف حصل إيه ؟

— لأ

— انضرب بمرفة العمدة « علقة » لكن « نضيفة » وانحبس أربعة وعشرين ساعة فى حجرة التليفون

— والمركز عمل لها قضية ؟

— أبداً . ماهى هنا الخطورة . لا قضية ولا مذكرة ، ضحكوا على المحضر وقالوا له يسحب شكواه وصرفوها

— ما داموا صرفوها انتهينا

— انتهينا ازاى ؟ أنا لا يمكنى أسكت عن مسألة زى دى . دا اسمه إجرام ! البوليس يجرم ...

— يظهر أن حضرتك اشتقت لحر وجه قبلى

— ينقلوا قاضى وجه قبلى لأنه أراد منع المركز من العبث . . . ؟

— عملوها كثير . وسبق نقلوا قاضى أقاصى الصعيد لأنه أفرج فى قضية معارضة عن متظاهرين ضد الحكومة ، مع أن هذا القاضى كان من المحايدين البعيدين عن الأحزاب وعن السياسة . ولا يخفى أن بينك وبين المأمور سوء تفاهم عائلى . وساعتها تلقى المأمور حرر التقارير السرية عنك واتهمك بأنك من خصوم الحكومة ، وأنك من أرباب الفتن والدسائس ، وأنك تضطهد أنصار الوزارة ، وأنك خطر على سياستها الحاضرة إلى آخر هذا الأسلوب المعروف

— شىء جميل . البوليس يحرر التقارير السرية ضد القضاة ؟ !

— حصل

— والعمل إيه ؟

— اترك لى المسألة . أنا أتحرى من المركز بلطف وأجرى اللازم . . .

— لهذا الحد تعبث السياسة عندنا بالعدالة والنظام والأخلاق ، أعوذ بالله ! شىء مخيف . . . !

وجعل يهز رأسه أسفاً وحنقاً . ثم التفت إلى فجأة وقال :

— دا صحيح . تصور أن فضيلة القاضى الشرعى « الضلالى » عامل اليوم أنه صديق المأمور الحميم مع أنه كان يكرهه كراهة التحريم من بعد حادثة الأجزاخانة !

فأبديت عجبى . إنى حقيقة كنت قد سمعت من المأمور فيما سمعت من أخبار القاضى الشرعى هذه الحادثة : إن أهالى البلد وأعيانها لاحظوا افتقار البلد إلى أجزاخانة « أصولية » تغنيهم عن البنادر الكبيرة فاكتتبوا فيما بينهم بمبالغ أسسوا بها أجزاخانة نظيفة كاملة الأدوات ، وعينوا لها « أجزجى » قانونى هو رجل سورى اسمه « جبور » ثم تباحثوا فيمن يصلح مشرفاً على مالية هذه الأجزاخانة وعلى إدارتها ، ووقع الاختيار فى آخر الأمر على فضيلة القاضى الشرعى . ومَن غير فضيلته بلحيته الوقورة وسبحته الطويلة يؤتمن فى هذه البلدة على أموال المسلمين وغير المسلمين من المساهمين ؟ ووافق المأمور على تنصيب القاضى الشرعى مشرفاً

وتكرم فضيلته وتسلم مهام عمله بأن جعل مجلسه عصر كل يوم أمام باب الأجزاخانة حيث يتنحنح ويبدأ باسم الله والصلاة على نبيه وآله وصحبه . ثم يصيح :

— يا خواجه جبور . القهوة والشيشة !

ثم يجتمع عليه من أصدقائه وأقاربه الآنيين من الكفور عدد كثير كل يوم ، فيأمر لهم بالقهوة أو الشاى . وكل هذه الطلبات طبعاً على حساب الأجزاخانة ، وهو لاينسى مطلقاً أن يلق نظرة على مستحضرات المحل قبل انصرافه وهو يقول لجبور :

— عندك صابون ممسك من العال ! زجاجة « الريحة » « الكلونيا » دى لا بأس بها ! ..

ولا يكاد يدخل فضيلته منزله حتى تكون هذه البضاعة التى أعجبته قد سبقته إلى البيت . ويجلس أحياناً أطفاله إلى جواره بباب الأجزاخانة أو يتركهم يلعبون حوله . فاذا جاءوا أو بكوا صاح القاضى فى الأجزجى القانونى :

— يا خواجه جبور ! هات للأولاد كم قرص نعناع من عندك !

ويحتاج فضيلة المشرف إلى بعض المال فى بعض الأحيان فيقول للأجزجى :

— هات من « الدرج » أربع « برايز »

وتمر بائعة دجاج فيشترى منها فضيلته « زوجين » « عتاق » ويصيح فى الأجزجى داخل الأجزاخانة :

— ادفع لها من « الدرج » يا خواجه جبور

وضاق ذرع الأجزجى جبور آخر الأمر . فصاح فى القاضى ذات يوم :

الدرج ! الدرج ! شوها العما بها الدرج ! ونشب الشجار بين المشرف والأجزجى . وأقسم جبور أن يكسر ساق القاضى إذا حضر إلى الأجزاخانة بعد ذلك . واستغاث بالمأمور ، وعرض عليه ما وصلت إليه حالة الأجزاخانة . فاذا هى موشكة على الافلاس ، فقد اختفت مستحضراتها ونضبت مواردها ، ولم يبق أمل فى بقائها ؛ فان الأجزجى هو الآخر إقتداء بفضيلة المشرف الوقور لم يقصر فى الاجهاز من جهته على الباقى من « الدرج » والبضاعة والأدوات ، وتغيظ المأمور وصاح فى الأعيان المساهمين :

— الحق علينا اللى صدقنا اللحية والسبحة !

ومنذ ذلك اليوم والمأمور دائم التشهير بالقاضى الشرعى قائلاً عنه : « الرجل الضلالى » . والقاضى الشرعى من جهته دائم النيل من المأمور قائلاً عنه : « الرجل الزنديق لاعب الميسر »

ولكن السياسة قد جعلت رجال الادارة اليوم أصحاب سلطة مخيفة . وقد خشى فضيلته على نفسه ، ورأى بحكمته أن الأمان فى مصاحبة المأمور . فهل يحجم عن التقرب إليه والتزلف له ؟

مر بخاطرى كل ذلك وأنا جالس وأمامى القاضى الأهلى ، ولم أتمالك فقلت كالمخاطب لنفسى :

— لا بأس من الصلح ، لكن فى الظروف الحاضرة ... فيه شىء اسمه كرامة ...

فرفع القاضى يده فى حركة ذات معنى وقال :

— كرامة مين « يا مونشير » !

ونهض يريد الانصراف وهو يميل علىّ ويقول بصوت منخفض :

— كلام فى سرك . فى يوم حضر الى بيتى فلاح ومعه خروف وقال « الهدية » . فقلت له : « هدية إيه يا رجل » ؟ فقال : « الهدية اللى تم

عليها الانفاق علشان رد الولية امراتى » . ففهمت وقلت له فى الحال : « انت يا رجل غلطت فى البيت انت قصدك القاضى الشرعى » ! !

فلم أبد دهشة كبرى وأطرقت برأسى . وسكت القاضى محدثى قليلاً . ثم تحرك نحو باب الحجرة وحيانى بيده تحية مختصرة وذهب . وجلست وحدى قليلا أفكر فى كل ذلك . ورأيت أن أقوم الى المركز فى شبه زيارة خاصة لأستطلع من المأمور عما أخبرنى به القاضى . فانطلقت بمفردى وخلى حاجبى حتى بلغت حجرة المأمور ، فوجدته فى هذه المرة أيضاً مع أحد العمد يحادثه فى شبه عنف ولم تكن سيما هذا العمدة تنم عن يسر ولا عن وقار ، ويخيل إلى أنه من أحلاف العمد . « فالعمدة كالجرادة » يتخذ شكل الأرض التى يولد فيها . فالأرض الخضراء تخرج الجراد الأخضر ، والأرض الفحلاء تخرج الجراد الأغبر . وهذا العمدة الأغبر لا شك من بلاد قاسية فقيرة على حدود المركز قريبة من الصحارى . وسلمت على المأمور وقلت له باسماً :

— دايماً مع العمد !

فقال فى نبرة تعب :

— نعمل إيه يا سيدى !

ثم أجلسنى وطلب لى القهوة . إذ على الرغم من اعتكافى عنه وعن ناديه ، فهو يحترمنى ولا يحمل لى ما يحمله لغيرى من الضغن . فانى حريص دائماً مع رجال الادارة على تنفيذ أوامرى فى مظهر بسيط لا يشعرهم بغضاضة الأمر . واستأذننى المأمور فى إتمام حديثه مع العمدة لينتهى من شأنه ويتفرغ لى فأذنت له . فالتفت الى الرجل وقال له فى صياح وتهديد :

— طوّل بالك ، انت يظهر عليك إنك مش عارفنى . والله لا بد من انى ...

فقاطعه العمدة مستعطفاً :

— أنا رجل غلبان ...

فمضى المأمور فى وعيده :

— انتظر ! إن ما كنت أدخلك البرلمان ، ما اسمش أنا مأمور المركز !

— ليه أنا عملت إيه بس تدخانى البرلمان !

قالها الرجل فى توسل وارتياع . فضحكت وعجبت . والتفت إلىّ المأمور قائلا :

— كشوف الانتخابات فى جيبه ومش عارف البرلمان ده يبقى إيه . أهم عمد نشتغل معهم !!!

ثم عاد المأمور والتفت إلى الرجل قائلاً :

— تفضل من غير مطرود !

فخرج العمدة ذليلاً كأنه خادم أو مجرم ، وقلت فى نفسى هذه الذلة التى يذوقها فى حضرة رجال الادارة لن تذهب سدى ، فهو سيذيقها بعينها لأهالى القرية التى يحكمها ، فان كأس الاذلال تنتقل من يد الرئيس إلى المرؤوس فى هذا البلد حتى تصل فى نهاية الأمر إلى جوف الشعب المسكين يجرعها دفعة واحدة

وجلس إلىّ المأمور يعرف سبب « تشريفى » المركز بالزيارة ، فأخبرته أنه « الشوق » ، فابتسم المأمور ابتسامة غير المؤمن بهذا السبب الأفلاطونى ، ولم أصرّ كثيراً على كلمتى ، وقلت فى هيئة الجدّ :

— بلغنى يا حضرة المأمور أن أحد المحضرين ضربوه وحبسوه أثناء تأدية وظيفته ؟

— فأجاب من فوره :

— ما عنديش خبر

— حصل تبليغ المركز ؟

— لو كان حصل كنا ضبطنا لها واقعة وعملنا قضية

— بالتأكيد

وأطرقت قليلاً ، وفكر المأمور لحظة ثم قال:

— حدّ بلغ سعادتك بشيء ؟

— لو كان حد بلغني كنت فى الحال باشرت التحقيق

— مؤكد ؟

— المسألة يظهر أنها مجرد إشاعة

فانطلق المأمور يقول :

— هى وحياتك إشاعة ، خارجة من بطن المحكمة لتشويه سمعة المركز ، وأنت لا يخفاك أن حضرة القاضى « طالع فيها » وغرضه يشنع علينا بأى طريقة . . .

وأراد المأمور أن يسترسل ، فبادرت باغلاق هذا الباب حتى لا أزج بنفسى فى هذا الشجار القائم بينهما . حسبى أنى أفهمت المأمور من طرف خفى أنى لست بغافل عن الموضوع ، وأنى لا أحجم عن اتخاذ الاجراء اللازم فيه ، ونهضت فى الحال ، ونهض معى ، وقلت مازحا :

— والانتخابات يا حضرة المأمور ... ؟

— عال

— ماشية بالأصول ؟

فنظر إلىّ مليا ، وقال لى فى مزاح كمزاحى :

— حانضحك على بعض ؟ ! فيه فى الدنيا انتخابات بالأصول ! !

فضحكت وقلت :

— قصدى بالأصول : مظاهر الأصول

— إن كان على دى اطمئن

ثم سكت قليلاً ، وقال فى قوة وخيلاء :

— تصدق بالله ؟ أنا مأمور مركز بالشرف . أنا مش من المآمير اللى انت عارفهم ، أنا لاعمرى أتدخل فى انتخابات ، ولا عمرى أضغط على حرية الأهالى فى الانتخابات ، ولا عمرى قلت انتخبوا هذا وأسقطوا هذا .. أبدا ، أبدا ، أبدا . أنا مبدئى ترك الناس أحرارا تنتخب كما تشاء ...

فقاطعت المأمور وأنا لا أملك نفسى من الاعجاب :

— شىء عظيم ياحضرة المأمور ، بس الكلام ده مش خطر على منصبك ؟ أنت على كده . . أنت رجل عظيم . . .

فمضى المأمور يقول :

— دى دايماً طريقتى فى الانتخابات : الحرية المطلقة ، أترك الناس تنتخب على كيفها ، لغاية ما تتم عملية الانتخاب ، وبعدين أقوم بكل بساطة شايل صندوق الأصوات وأرميه فى الترعة ، وأروح واضع مطرحه الصندوق اللى احنا موضبينه على مهلنا

— شىء جميل !

قلتها فى شىء من الاستغراب ممزوج بخيبة الأمل . ولم أشأ أن أعقب على ما سمعت . ومددت يدى مسلماً . وخرجت وخرج خلفى المأمور يشيعنى إلى الباب الخارجى ، وإذا بى أرى وأنا أجتاز فناء المركز شرزمة من الخفراء تتأهب للشحن فى « اللوريات » ، ومن بينهم الشيخ عصفور بأسماله وعوده الأخضر ؛ فالتفت إلى المأمور أسأله فى ذلك ، فقال وهو يشير بيده إلى الرجال :

— أنفار قايمة لحفظ النظام ساعة إعطاء الأصوات . . .

— والشيخ عصفور ماله ومال الانتخابات ؟

— مواويله تؤثر على عقول الفلاحين !

— يعنى منتدب للدعاية !

فابتسم المأمور ابتسامة الصادق على ملاحظتى ، وابتسمت أنا أيضاً وأنا أضيف قائلاً :

— حتى الشيخ عصفور شغلتوه فى السياسة !

فنظر إلىّ المأمور نظرة ذات معنى ، وقال فى تنهد :

— نعمل إيه بس !

وفى هذه العبارة وهذا التنهد كل الكفاية فى جعلى أرثى لحال لهذا المأمور وأقدر دقة موقفه ومسؤوليته أمام الرؤساء الذين يطلبون إليه نتائج معينة بالذات بكل الوسائل التى يراها مؤدية إلى الغرض ، فان أحجم أو تردد فصل بلا رحمة ولا شفقة

وسرت فى سيرى بجوار الشيخ عصفور فابتدرته :

— البنت ريم راحت فين ؟

فنظر إلىّ الرجل شزراً ولم يعن بالرد علىّ . فأعدت عليه الكرة فى شىء من الرفق والاستعطاف

— ريم يا سيدنا الشيخ ، خلى نفسك ويانا فى مسألة البنت ريم !

فهز الرجل رأسه ، ولوح بعوده ، وقال مترنما :

إيش راح ينوبك
من الشكيان ويفيدك
ليه ما حكمتش
على طيرك وهو فى إيدك

فابتسمت وقلت للشيخ عصفور وأنا أشير بأصبعى إلى المأمور :

— قل لحضرة المأمور ، هوالى استلم الطير !

(يتبع) توفيق الحكيم

مكافأة

لمن يدل على القاتل

تعطى مجلة « الرواية » مكافأة وقدرها ٥ جنيهات لمن يدل على القاتل فى القضية المشار إليها فى « يوميات نائب فى الأرياف » للكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم التى تنشرها المجلة تباعاً على أن تصل الردود إلى المجلة قبل أول يوليه مع بيان الأدلة بوضوح وإيجاز

فى الطريق

كتاب جديد يصدر فى سبتمبر

بقلم الأستاذ

ابراهيم عبد القادر المازنى

أكثر من ٦٠ قصة فى ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش

الثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك يقفل فى منتصف أغسطس

« لأنفس من درر البحار ما يجده الرجل من راحة بال ، وما ينعم به من خفى البهجة فى كنف حب المرأة ، فما قربت المنزل إلا وملأت صدرى روائع النعيم ، فما أروح ما يتردد فى ظلال الزواج من أنفاس لها عبير ما أحلاه ! وما أطيب البنفسج فى حياضه ببالغ مداه » (مدلتون)

طالما أتيح لى أن أشاهد بطولة المرأة وثباتها فى تلقى ضربات القدر مصحوباً باحتمالها الضراء بعد السراء ، حتى ليخيل المرء أن المحن التى تفل عزيمة الرجل وتصدع أركان نفسه تستنهض المرأة وتستثير قواها ، وتبعث فيها من البسالة والسمو ما يبلغ الذروة فى بعض الأحيان . وليس أوقع فى النفس من رؤية امرأة رقيقة ناعمة كانت أيام اليسر والنعيم عنوان الضعف وقلة الحول ، وإذا بها تسمو بادرا كما لجأة فتصير سند الرجل ومفرج كربته أيام بؤسه وخلال محنته ، وليس أروع من رؤيتها تصمد لعواطف البؤس الجامحة رابطة الجأش ثابتة الجنان

تلتف الكرمة بأوراقها النضيرة حول السنديانه مستعينة بها على بلوغ شعاع الشمس فتظل معتمدة عليها وتلك موكلة بها ، حتى إذا ما نزلت بالسنديانة صاعقة فرقتها حنت الكرمة عليها بمساليجها الرقيقة العطوف تضم بها أغصانها الممزقة وأنسجتها المشققة ، كذلك حال المرأة تعول على الرجل وتكل أمرها اليه ، فلا تعدو أن تكون زينة بيته وحلية أنسه ، فاذا ما انقضت عليه البأساء بضربة من ضرباتها الهوج شاء لطف الله فى قضائه أن يجعل منها موئله وعزاءه فترعى نفسه المضطربة بحنانها ، وتحتمل برفق رأسه الثقل ، وترأب بعطفها وحدبها صدره الصدوع

كنت ذات يوم أهنئ صديقاً تجمعت حوله أسرة موفورة الصحة جمة النشاط جمعت بين أفرادها أقوى أواصر المحبة ، فقال لى متحمساً : « ما أستطيع أن أتمنى لك نصيباً فى الحياة خيراً من أن تكون لك زوج وبنون يقاسمونك فى يسرك السراء ، ويكونون فى عسرك عزاءك وعونك على الضراء »

وهذا حق ، فقد رأيت المتزوج الذى يتردى فى مهاوى البؤس أقرب نهوضاً من سقطته وأقدر على استعادة مكانته من الأعزب الوحيد . ويرجع بعض الفضل فى ذلك إلى أن لدى المتزوج دافعاً أقوى على العمل هو حرصه على القيام بمطالب أعزائه ضعيفى الحيلة الذين يعتمدون عليه فى سد حاجاتهم وحفظ حياتهم ، إلا أن الفضل الأكبر فى ذلك يرجع إلى أن ما يلقى المتزوج فى داره من عطف ومودة يخفف من همه ويزيل من حزنه ، ويجدد نشاطه ويذكى ملكاته ؛ هذا إلى أنه لا يفقد الثقة بنفسه ولا يهون لديه قدره حين يرى أنه برغم ما يحيط به من سواد وبرغم ما يصادف خارج داره من هوان ما برح يتربع فى بيته عرش مملكة صغيرة من المحبة والوداد . بيد أن الأعزب يكون فى بؤسه

عرضة لأن يهمل شأنه ويتلف نفسه ، إذ يخيل اليه أنه وحيد متروك ، سيحل بقلبه من البوار مثل ما يحل بالدار المهجورة حين يموزها النزيل المأمول

تعيد إلى فكرى تلك الخواطر ذكرى قصة من قصص الحياة الزوجية شهدتها بنفسى ، فقد تزوج صديق ليسلى من فتاة جميلة مهذبة شبت وسط الحياة الجديدة وشغفت بأغاطها الطريفة وأزيائها المستحدثة . لم تكن ذات ثراء ، إلا أن زوجها كان فى بسطة من العيش ؛ وكان يروقه أن يتيح لها التنعمى بمجاراة كل طريف والتحلى بكل ما يضفى على المرأة غلالة السحر والفتنة من جميل الزى ، ونفيس الحلى . وكان يقول : « إن حياتها ستكون قصة من قصص عبقر »

كان خيالياً يميل إلى الجد والرصانة فى حين كانت هى مرحة طروبا ، فكان لامتزاجهما ائتلاف شجى النغم عذب الألحان . ولطالما شهدت عن كثب ذلك الهيام الصامت الذى كانت تفيض به نظراته إليها ، وهما يجلسان بين الرفاق . وكنت أرى نظراته تلك تبعث فى نفسها البهجة والسرور كما كنت أراها تتجه ببصرها إليه وسط التهليل والاعجاب ، وكأنما لا تبحث عن مبتغاها من الاستحسان والقبول إلا عنده . ولقد كانت حين تتكئ على ذراعه يلوح جمال قوامها الانثوى رائعاً فى تباينه مع طول قامته وبادى رجولته ؛ وكان يبدو الاستسلام ويتدفق الحب فى نظراتها إليه مما كان يبعث فيه الزهو بها والحدب عليها ، وكأنه ما شغف بهذا الحمل الوديع إلا لضعفه وقلة حوله . وهكذا مضيا فى طريق هذا الزواج المبكر والاختيار الموفق إلى حياة زوجية تحفها الورود والرياحين ماكثين فيها من أزمة النعيم ومقومات السعادة ، واحتمالات الهناء ما لم يتح لغيرهما من الأزواج

وشاء القدر أن يغامر صديقى بما له فى « مضاربات » واسعة النطاق . فلم يمض على زواجه كثير حتى فاجأته المآسى تترى فعصفت بماله . وفى لحظة وجد نفسه قد انحدر الى هوة الفاقة ، فظل وقتاً ما يخفى فى نفسه حقيقة ما آل إليه أمره وقد شحب وجهه ، وتحطم قلبه ، وأصبحت حياته كرباً دائماً لا يريم . ومما زاد فى كربه وجعله عسير الاحتمال على نفسه اضطراره أن يتكلف الابتسام والهشاشة أمام زوجه ، إذ أنه لم يكن يقوى على ازعاجها بالافضاء إليها بحلية أمره ، وحقيقة خطبه . بيد أنها على رغم ذلك رأت بعين الحب التى لا تغفل أنه لم يكن على ما تحب . فلاحظت نظراته الحائرة وزفراته العميقة ولم تخدعها محاولاته الفاشلة فى الظهور بمظهر السرور ، وحاولت جهد ما ملكت من روح مرح أن ترفه عنه ، فأحاطته بكل ما وسعها من رفيق العناية ، ورقيق الملاطفة ، عساها تفلح فى رد السرور الى نفسه وإعادة الغبطة الى قلبه ، فأخفق مسعاها ولم تفلح إلا فى دفع السهم مدى جديداً فى صميم فؤاده . فكلما رآها أحق بأن يزيدها حبا ، زادت نفسه كرباً ، وأمضه التفكير فيما سيجلبه إليها من الشقاء والحرمان عما قريب . ودار بخلده أنه لن يمضى إلا القليل حتى يفارق الهناء شغتيها ويبارح الوميض عينيها ، ويرزح قلبها الخافق بين جنبيها ، مثل قلبه ، تحت عبء هموم الحياة وأرزائها

وأخيراً جاء فى ذات يوم وروى لى حقيقة حاله وكل ما انتهى إليه أمره بلهجة من أعمق اللهجات يأساً ، وأشدها بؤسا . فلما وقفت منه على جلية حاله سألته : « أو تعرف زوجك ذلك كله ؟ » فصاح بى وقد خنقته العبرات : « بالله ألا ترحمنى فتشفق على ، ولا تذكر شيئا عن زوجى ، فان التفكير فيها هو الذى يكاد يفقدنى صوابى »

فقلت له : « ولم الكتمان ؟ ولا مناص من

أن تعرف جلية الأمر عاجلاً أو آجلاً فان عاقبة كتمانه عنها طويلاً، وعندما تظهر لها الحقيقة يوما ما سوف يكون الخبر أشد وقعا على نفسها، وأكثر إيلاما لها مما لو كاشفتها به، فان لهجة الحبيب تخفف وقع الخبر الشديد؛ هذا إلى أنك تحرم نفسك بهذا الكتمان راحة عطفها فضلاً عن أنك بتصرفك هذا تخاطر بالرباط الذى يؤلف بين القلوب، ألا وهو تبادل الفكر حراً، وبث الشعور صريحا. ولا بد من أن تكتشف عاجلاً أن أمراً يقلق بالك ويكربك، وليس طى الأسرار فى النفس مما يرضى الحبيب، فتشعر عندئذ أنك تبخسها حقها وتنتقص قدرها، ويسوءها أن ترى أحزانك أنت يامن تحب قد أخفيت عنها»

«أوه! ولكن ألا تتصور يا صديقى أثر تلك الضربة التى سأطيح بها كل آمالها وأمانيها؟ ألا ترى أنى سأهوى بقلبها إلى الثرى حين أخبرها أن زوجها قد أصبح فقيراً، وأن عليها أن تطرح عنها مطارف الحياة وزينتها، وتترك مباهج المجتمعات وفتنتها. وتنزوى معى فى عالم الفقر المدقع والظلام المطبق! كيف أخبرها أنى قد هبطت بها من ذلك الجو الذى تحلق فيه، والذى كان فى وسعها لولا ما حل بى أن تظل محلقة فيه فى اشراق دائم نوراً لكل عين، وبهجة لكل قلب، كيف تحتمل الفاقة والمتربة، وقد شبت فى أعطاف اليسر؟ كيف تحتمل الانزواء والاهمال وقد كانت معبود المنتديات؟ أواه إن ذلك سيحطم قلبها.. إن ذلك سيحطم قلبها

رأيته باكيا فى جزعه فتركته يتدفق فى حديثه فالحديث يسرى عن نفس المحزون، ويفرج كربة المكروب. فلما هدأت ثورته، ورأيته ارتد الى هدوئه واستسلم للكآبة عدت الى حديثى فى رفق ولين وأخذت أحثه على المبادرة بالافضاء الى زوجه بذات نفسه وحقيقة أمره فأومأ بالقبول؛ بيد أنه كان جد محزون

« كيف تكتم الأمر عنها فى حين أن الواجب أن تعلم به لتستطيع أن تمهد المدة لهذا التغير الذى طرأ على معيشتك، إذ من الواجب عليك أن تغير نظام حياتك؟ فمات وجهه سحابة من الغم لم تخف على فاسترسلت أقول: «كلا لا تجعل لذلك سبيلاً الى قلبك، ولا تر فيه مدعاة لايلام نفسك، فانى واثق أنك لم تجعل سعادتك فى يوم من الأيام رهينة المظهر الخارجى. ولا زال لك أصدقاء حميمون لا ينقصك فى نظرهم أن يقل رونق دارك. ثم إنى واثق أنك لست بحاجة الى قصر منيف حتى تسعد مع مارى »

فصاح مضطربا متأثراً: «انى لأستطيع أن أسعد معها فى كوخ وأن أنحدر معها الى الفاقة وأهوى الى الحضيض، أستطيع، أستطيع باركها الله، باركها الله» صاح بذلك وقد غمره سيل من الأسى والشجن

فقلت له وقد تقدمت إليه وأمسكت يده بحرارة: «صدقنى يا أخى وثق أنها سوف تكون كما كانت وخيراً مما كانت. ولسوف يكون من دواعى فخارها ودليلاً على انتصارها وسبباً فى استثارة كامن قواها واستجاشة مدخر عواطفها أن تبرهن فرحة طروبا على أنها إذ أحبتك أحبتك لذاتك، فان فى قلب كل امرأة قبسا من نار علوية يظل كامنا ما أشرق نور أيام السراء فما ينتشر ضياؤه الا ساعة يخيم ظلام الخطوب. ومايدرى الرجل حقيقة زوجه وأنها راحة صدره والملك الكريم الذى يحوم حوله حتى يسلك بها غمار الحياة وتصهرها المحن »

لقد كان فى صدق تعبيرى وبلاغة لهجتى ودقة تصويرى ما أثر فكره الثائر وهدأ خاطره المروع؛ وكنت أعرف من أحاول اقناعه، فتابعت الضرب على الوتر الذى أشجاه وانتهيت باقناعه بالذهاب الى بيته والافضاء الى زوجه بما أحزنه وناء به قلبه

ولابد لى من أن أعترف بانى على رغم كل ما قلت كنت قلقا غير مطمئن الى النتيجة ، إذ من يستطيع أن يعتمد على جلد من عاشت كل حياتها بين اللهو والسرور ؟ أليس من المحتمل أن تتمرد تلك النفس الطروب عند ما ترى ذلك المنحدر المظلم الذى شقه البؤس فجأة أمامها ؟ أو ليس من المحتمل أن تظل روحها الرحة متعلقة بالآفاق المشرقة الخلابة التى ظلت حتى الساعة تسعد بها ؟ وما آمر الضيق بعد السعة لمن أحبوا مستحدث الأزياء وطريف الملاهى ، فان الفاقة لتجلب لهم من الآلام المبرحة ما لا يحسه غيرهم من الناس . ومجمل القول انى لم أستطع أن ألقى صديقى فى الغد إلا وأنا مشفق مضطرب وكان قد أفضى إليها بدخيلة نفسه وحقيقة خطبه

« وكيف تلقت الخبر ؟ »

« كالملاك ، حتى لكأنما كانت فيه راحة فكرها ، فطوقت عنقى بذراعها وسألتنى : أهذا كل ما أحزنك طيلة هذه الفترة الأخيرة ؟ » ثم أضاف الى ذلك قوله « إلا ان الفتاة المسكينة لا تستطيع أن تتبين ما لابد لنا من ملاقاته من تبدل حال بحال . انها لا تعرف الفقر الا تصورا مما قرأت عنه فى شعر الشعراء ، لا يوجد إلا محاطا بالحب مقرونا بالهوى ، انها لم تشعر بعد بانا فقدنا شيئا ما إذ لم تعان بعدُ الحرمان مما ألفت من المناعم والمطارف ، ولكن التجربة الحقيقية ستكون عندما تصطدم بالوقائع وتعانى وضيع المشاغل وتافه الحاجات ورقة الحال وسوء المآل »

فقلت له : « أما وقد انتهيت من مكاشفتها وتلك هى المهمة الشاقة فانك ستجد عما قريب سراً خفياً يبدل أمامك الحياة فتراها تسير بك من حال الى حال أهنأ وأسعد . نعم إن الكشف عن الخبر المشئوم قد يؤلم إلا أنه ألم ساعة يزول ، وأما حرصك على الكتمان فهو الكرب الذى لا ينتهى والذى تصلى ناره كل حين توجسا من كشف المستور . وليست متاعب الفقر شيئاً الى جانب متاعب الادعاء الكاذب وتكاليف الكبرياء والتطلع للجيب الخاوى . إن محاولة المحافظة على المظهر الفارغ هى التى يجب أن تضع لها حداً ؛ فكن شجاعاً فى قبول مظهر الفقر فانك بذلك تجرد الفاقة من سلاحها البتار وعذابها الأليم » فوجدت من ليسلى تمام الاستعداد لقبول هذه الفكرة إذ لم يكن فيه ميل للادعاء الكاذب أوحب المظهر الفارغ ، أما زوجه فحسبنا ما أظهرت من ميل للسير وفق مقتضيات ما آل إليه حاله

جاءنى ذات مساء بعد ذلك بأيام ، وبعد أن تخلى عن منزله واتخذ لنفسه كوخاً صغيراً فى القرية على مسافة أميال من المدينة ، وكان قد شغل طيلة يومه فى إعداد أثاثه ، وما كانت تلك الدار الجديدة لتتطلب من الأدوات إلا القليل البسيط ، وكان قد باع الأثاث الفاخر أثاث منزله السابق إلا أنه أبقى قيثار زوجه وقال : انه احتفظ به لأنه قريب الصلة بها متصل بأقصوصة هواهما ، وانه يذكره ببضعة لحظات من أحلى لحظات هيامهما ، حين كان يميل الى القيثار ويستمع الى صوتها الشجى الحنون . فما وسعنى إلا الابتسام لما ينطوى عليه هذا الزوج المتيم من فروسية ووفاء . لقد كان ذاهباً إلى الكوخ حيث ترك زوجه تقوم باعداده ، ولما كنت مشوقاً إلى تتبع قصة هذه الأسرة وكان المساء جميلاً فقد اقترحت أن أصحبه . ولقد كان متعباً لما بذل فى يومه من جهد فسار وقد انتابته نوبة من التفكير الحزين . وأخيراً صعّد من بين شفتيه زفرة عميقة وقال : « مسكينة ماري ! » فقلت له : « ومادهاها ؟ هل أصابها شيء ؟ »

فقال لى ، وقد ألقى إلى بنظرة ملول : « كثير عليها أن تنحدر إلى هذا المكان الوضيع ، وأن تحبس فى هذا الكوخ الشنيع ، وأن تضطر إلى معاناة

مشقة العمل فى هذا المسكن التعس »

« هل تألمت من هذا الانقلاب ؟ »

« تألمت ! كلا ، لم تبارحها عذوبة روحها وصفاء نفسها حتى ليبدو عليها أنها أكثر مرحاً وسروراً مما كانت عليه فى أى وقت آخر . ولقد كانت كلها حباً ، وكلها عذوبة ورقة ؛ فكانت راحة قلبى وبهجة نفسى » فقلت متعجباً : « يا لها من فتاة تستحق الاعجاب ! أو تدعى أنك فقير ياصديقى وأنت لم تكن أكثر غنى منك اليوم ، إذ لم تنكشف لك قبل اليوم جوانب تلك العظمة التى لاحد لها والتى أنعم الله عليك بها فى شخص هذه المرأة »

« أوه ! ولكنى لا أستطيع أن أستريح ياصديقى حتى يمر بسلام أثر اللقاء الأول لهذا الكوخ ؛ فهذه أول مرة تصطدم فيها بالواقع وتجرب فيها الحقيقة المرة ، واليوم فقط تلج مسكناً وضيعاً تكد فيه طيلة يومها فى إعداد حقير لوازمه ؛ واليوم فقط تذوق متاعب الأعمال المنزلية ؛ واليوم فقط ترى نفسها وقد حرمت الطارف ، وفقدت المتع ، وفارقها النعيم ، وذهبت عنها الراحة ، ولعلها تجلس الساعة متعبة كئيبة تفكر فى أمر ذلك الفقر المقبل الذى ستصلى ناره وتلقى أذاه » ، ولقد كان فيما قاله شيئاً من الصدق وكثيراً من الاحتمال لم أستطع أن أمارى فيه ، فسرنا صامتين

انثنينا من الطريق العام إلى منعطف ضيق ألقت عليه أشجار الغاب ظلاً كثيفاً أوضح عزلة ذلك المكان ، وقد ظهر النزل قبالتنا تبدو بساطته خليقة باعجاب أشد الشعراء شغفاً بالريف وإيثاراً للبساطة ، وإلى جانب تلك البساطة تجلى جمال المنظر الريفى ، إذ امتدت على جانب من الكوخ كرمة برية غمرته بكثيف من ناضر الأوراق كما ألقت عليه الأشجار الشجراء فينان الأغصان ورشيق الأفنان ، وقد ظهر حول الباب وفى مدخله المخضوضر عديد من أوانى الزهر نسقت تنسيقاً فيه سلامة الذوق ، وانفرج الباب الخارجى الصغير عن ممر شق بين الأعشاب يؤدى إلى الباب الداخلى فما كدنا نبلغه حتى سمعنا نغما موسيقيا ؛ فأمسك ليسلى بيدى فوقفنا نستمع إذ كان الصوت صوت مارى تغنى فى بساطة رائعة مقطوعة من المقطوعات التى يحبها

شعرت بيد ليسلى تضطرب فى ذراعى ووجدته يتقدم ليستطيع أن يستمع بوضوح ؛ فكان لوقع أقدامه صوت على الممر المرصوف ؛ فأطل من النافذة وجه مشرق جميل ما لبث أن اختفى وسمعنا خطوات رفيقة ، وأقبلت مارى للقيانا مرتدية ثوباً ريفياً جميلاً أبيض اللون ، وقد وضعت فى طيات شعرها الجميل بضع زهرات برية ، وقد علت النضارة والرواء وجهها وتوردت وجنتاها وأشرق بالابتسام محياها ، فما رأيتها قط أكثر منها انتعاشاً مما بدت عليه فى تلك اللحظة ، فهتفت : « عزيزى جورج ، كم أنا مسرورة بقدومك ! فلقد طال انتظارى إياك ، ولقد كررت إلى المنعطف أبحث عنك . لقد أعددت المائدة تحت دوحة جميلة خلف الكوخ ، وجمعت لك بعضاً من أطيب ثمار الفرولا التى تحبها ، ولدينا إلى جانب ذلك قشدة ممتازة . إن كل ما هنا عذب وهادئ » ثم وضعت يدها فى يده ونظرت إليه منشرحة وقالت : « أوه ! سنكون سعيدين كل السعادة »

فغلب ليسلى على أمره ، وضمها إلى صدره وطوقها بذراعه وقبلها ثم قبلها ولم يستطع الكلام ، وغلبته الدموع فملأت عينيه . ولطالما أكد لى أنه برغم ما أصابه بعد ذلك من نعمى وبرغم ما انتهى إليه من خير وسعادة ، فانه لم يشعر قط بأعذب ولا أسعد من تلك اللحظة التى غمره فيها من الغبطة والسعادة ما لا سبيل إلى وصفه ولا حد لجماله .

حسين محمد كامل

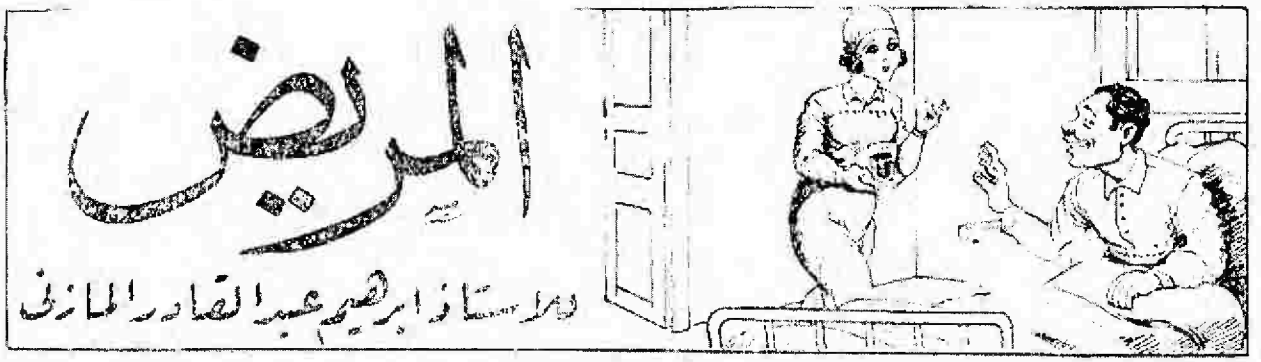

جلس سالم فى (الأمريكين) مطرقاً ينظر إلى كعب حذائه الذى صقله له الرجل منذ دقائق ، وكان يحركه كأنما يريد أن يحفر حفرة فى الأرض الصلبة . وكان كرسيه قريباً من رصيف الشارع ، وكان غاصاً بالغاديات والرائحات من كل فاتنة ممشوقة القوام ، ولكن عينه لم تكن إليهن بل إلى الأرض وكان فى الحقيقة يديرها فى نفسه ، ويتساءل : « لما ذا خلت حياتى الى الآن من المرأة ؟ » ولا يهتدى الى جواب لسؤاله ، فقد كان فى السابعة والعشرين من عمره ، وكان ماله كثيراً ، ولا عمل له إلا إنفاق هذا المال — إن صح أن هذا عمل — وكان يحس أنه ليس حيا بالمعنى الصحيح ، وينكر من نفسه انقباضه عن الخلق ، وحياءه وخجله من المرأة . وتذكر ، وهو جالس يراجع نفسه ويتهمها بالضعف وعدم الصلاح للحياة ، أنه حاول مرة أن يتعلم الرقص وكانت معلمته رشيقة خفيفة فاستقبلته أول يوم بالابتسام والترحيب ، وعلمته خطوات ، وكان يحسبها لينة مؤاتية ، ولكنه لم يجعل باله الى ذلك ، وإن لم يفته الشعور به ، بل أقبل على الدرس جاداً كأنما الدنيا ليس فيها غير قدميه ، فما أضيق رقعتها ! فلما كان الدرس الثانى ، دار معها دورات لاحظ أنها انقلبت جامدة ، وأنها صارت كأنها نائمة ، فقد كانت تتثاءب بالفعل ! فعجب أين ذهب لينها ؟ وكيف جف وتصلب جسمها الذى كان بالأمس رخصاً ؟ وجاوز الأمر التثاؤب الى التعبيس فأحس أنه ثقيل على نفسها ، فكف عن الدرس ، وراح يسأل نفسه : « كيف حدث هذا ؟ . لقد كانت أول يوم خفيفة مرحة ، وكان فيها لين ومرونة ، وكان الجمال يضحك بوجهها ، ويضيئه نوره ، فهل ترانى أذويتها وأخمدت هذا الضياء ؟ »

وضاق صدره ، وهو جالس ، ولم يحتمل كل هذا الجمال الذى يخايله ، فصفق وطلب كأساً من الويسكى ولم تكن الخمر مما يحب ، ولكنه خالف عادته ، لعل الخمر ترفع هذا الذى جثم على صدره ، وشرب الكأس بلا مزج ، صرفاً ، بغير تقطيب وطلب أخرى ألحقها بالأولى ، وثالثة شمشمها بالصودا ، فقد أحس أنه صار أخف وأقوى ، وأن الحجر الذى كان على قلبه قد انحط ، فقد صعد الشراب الى رأسه ، فرفع عينه وأجالها فى الفتيات السائرات ، وراح ينقدهن أيضاً ، فهذه صدرها أعلى مما ينبغى لمن كان لها مثل عودها ، وتلك مصومة لا ثدى لها ولا خصر ولا ردف . وهذه الثالثة بديعة التكوين ، ولكن ينقصها أن تكون خطوط جسمها ألين ، والرابعة . . أوه ما شاء الله ! . . لقد تحسن النسل جداً فى هذا العصر ! . أين من هؤلاء أمهاتنا اللواتى كن يخرجن ملفوفات فى

الملاءات ، وكأنهن منها فى غرارات أو زكايب ؟ وقرت عينه بهذه المناظر وزايله الشعور بالكمد والحرمان ، وآنس من نفسه قوة وجرأة لا عهد له بهما ، وكانت هذه نشوة ، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أو يفطن إليه ، وكان الشراب قد أدار رأسه ، فنهض يتمشى ووضع طربوشه على رأسه بغير احتفال ، وكان الزر الى الأمام ، وكان ربما أطرق وهو سائر على عادته ، ولكنه فى هذا المساء استطاع أن يرفع رأسه ، وكان حين يفعل ذلك فجأة يلمح الزر فيضحك ويضربه بأصبعه فيدور ثم يستقر بعض خيوطه فوق الطربوش والباقى يتدلى على مستداره فيضحك كرة أخرى ويهز رأسه مسروراً ، ثم يروح يغنى ، لا بشعر أو نحوه ، بل ببعض ما يدور فى نفسه من الخواطر ؛ وكان تلحينه مبتكراً لا تشوبه شائبة من التقليد ، وكان فى الواقع أشبه بمن يغنى نفسه فى الحمام ليتسلى ، ولم يكن يحس أن فى الدنيا ناساً يروحون ويجيئون ويستغربون حاله وينظرون إليه ويبتسمون أو يقطبون . وكان هو يصيح — وفى ظنه أنه يهمس — كل بنت تُحِبّ أن تُحَبّ . . يا سلام ! . . عام ! . . لن أنا كانى امرأة . . أبداً ! »

وأجال عينه وهو يتبسم راضياً عن نفسه وعن الدنيا التى حلت فجأة فى عينه ، فوقعت على فتاة أيقن حين رآها أنها أجمل من خلق الله . ولا شك أنه كان مبالغاً ، ولكن الحقيقة أنها كانت جميلة . وكانت وسطاً لا بالطويلة ولا بالقصيرة ، وغضة هيفاء لا هزيلة ممروقة ، ولا بدينة يلح عليها اللحم ، وسمراء ولكن شعرها ناعم وحف ، وذهبي مرسل لا يبدو أن شيئاً يمسكه من مشابك أو نحوها ، وكانت خطرتها رقصاً بلا تكلف ، ومشيتها انسياباً ،

وأدهش سالماً أن الفتاة نظرت إليه كما نظر إليها ، وأنها لم يسؤها تحديقه فى وجهها ، بل ابتسمت هى أيضاً ، وتأملته كأنما تفحصه أو تعجمه بعينها ثم انصرفت عنه ومضت فى سبيلها ولم تلتفت بعد ذلك وراءها أبداً . وكان عهده بالفتيات أنهن لا ينظرن إليه ، ولا يقمن له وزناً . وقد تلتقى عينه بعين إحداهن اتفاقا ، لا عن عمد منه ، فما كان يجرؤ على ذلك ، فتحول وجها كأنما رأت ما تكره فكان يعجب ويسأل نفسه : « ماذا يا ترى يبغضنى إليهن ؟ أأنا دميم ؟ فانى أرى أشد الناس دمامة تعشقهم فتيات صبيحات الوجوه مدهشات ! أم أنا ثقيل الظل ؟ ولكنى لا أقول ولا أفعل شيئاً . فاذا يرين من ثقل ظلى إن كان ثقيلا ؟ (ويعز عليه أن يقر على نفسه بثقل الدم فيقول) أظن أنه ينقصنى شىء . . . ولكن ما هو ؟ (ولا يهتدى إلى النقص فيقصر يائساً)

ولم يخطر بباله هذا المساء أن به نقصاً ، أو أن ظله ثقيل ، أو أنه دميم ، فقد صرفه عن ذلك ما شرب على خلاف عادته . وكانت ابتسامة الفتاة حسبه مطيراً لكل هذه الخواطر الثقيلة من رأسه ، فزرر الجاكتة ومضى وراءها يريد أن يدركها ، وكانت أسرع منه ، ولكنه عوض ذلك بقوة الارادة ، وصحة العزم ، وإذا بها تقف أمام مدخل عمارة ضخمة عالية ، على الجدار إلى جانب بابها الواسع لوحات كثيرة فقال وهو يبهج : « سعيدة » فنظرت إليه ملياً ، وحدثت نفسها أنه السكران الذى كان يغنى فى الشارع ، وخطر لها أن تتقى إسخاطه فقالت : « سعيدة » وكانت السكرة قد راحت ... طارت فى الهواء .. ولم يبق فى رأسه إلا الرغبة فى معرفة هذه الفتاة الجميلة بأى ثمن ،

فتظاهر بأن يتأمل اللوحات الكثيرة وقال : «أظن أن عيادة الدكتور جميل هنا ؟ » وأشار إلى اللوحة التى تحمل هذا الاسم . فابتسمت وسرها أنه يتكلف البحث عن اسم طبيب ليخلق موضوعا للكلام ، وخيل إليها أنه ليس بسكران كما توهمته ؛ واعترفت أنه وسيم مليح القسمات فقالت : « ربما .. من يدرى ؟ » فقال : « إذا لم يكن .. أى هؤلاء أحسن ؟ هل لك أن تشيرى على ؟ » ولم يكن يريد أن يقول ذلك ولكنه قاله بلا تفكير ، فلم يسمعها إلا أن تضحك ثم قالت : « هل أنت واثق أنك تريد أن تدخل عيادة طبيب ؟ » فقال : « بالطبع . إنى مريض جداً .. لا أدرى كيف عشت الى الآن .. كيف أمكن أن أعيش » وأحس وهو يقول ذلك أنه ليس خير ما يقال لفتاة جميلة يرجو أن يستميلها إليه . وما ذا تصنع فتاة بمستشفى متحرك ؟ ولكن السيف سبق العذل . وسمعها تقول — كأنما كانت تقرأ خواطره — « مسكين ! ألا يحسن أن تذهب الى مستشفى ؟ » فقال بسرعة ، فما كان يعنيه إلا الكلام والسلام : « والله فكرة ... هل تعرفين مستشفى ؟ » ولم ينتظر جوابها بل اندفع يقول : « اسمى . من أنت ؟ . من عسى تكونين بغض النظر عن كونك أجمل فتاة على ظهر الكرة الأرضية ؟ » فحملقت فى وجهه ، وقد أدهشتها جرأته ، ولكن لهجة الجد والاخلاص لم تفتها ، ومنعتها أن تغضب ، وأقنعتها أنه يقول ما يعتقد فابتسمت واكتفت بأن تقول : « اسمح لى ... » ودخلت العمارة وتركته واقفاً ، فتردد وعاوده الحياء القديم الذى أفسد عليه حياته ، فقد كان ذهابها ، هكذا فجأة ، صدمة كادت تضيع تشجيع الابتسامة التى أجرته وراءها ، ولكن بقية من الكؤوس التى احتساها قوّت ضعفه . وثبّت جنانه فزعُه من أن يكون هذا آخر العهد بها ، فلحق بها كالمجنون ، وإذا بها تدخل عيادة الدكتور جميل . . . ولم يكن قد عنى بأن يعرف أى طبيب هو ، ولكن ما قيمة هذا ؟ . . وجلس فى غرفة أشار إليها الخادم ؛ وكانت خاصة بالخلق فتشهد لأن هذا خليق أن يتيح له أن يطيل المكث حتى يرى الفتاة مرة أخرى أو تسنح فرصة لـ ... من يدرى ؟ . ثم نهض وراح يتمشى فى الردهة ، فقد كان يحس أن السكون شاق ، وخرج الخادم فى تلك اللحظة من غرفة السيدات ، فأومأ إليه وناوله عشرة قروش وشرع يلقى عليه سؤالاً بعد سؤال ، لا عن الدكتور فما كان يعبأ به شيئاً ، بل عن العمارة وملك من هى وأجرة الشقة فيها ، كأنما كان ينوى أن يشتريها ، ثم وثب فجأة وبلا مناسبة إلى السؤال عن الفتاة التى جاء وراءها ، ولم يتعذر على الخادم أن يعرفها لأن سالماً وصفها وصفاً دقيقاً وإن كان لم يخل من المبالغة ، ثم لأنها كانت آخر من دخل قبله ، فما راعه إلا قول الخادم : « آه الريسة خديجة ؟ » فدهش سالم وسأله : « عمن تتكلم ؟ » قال الخادم : « عن الريسة خديجة ؟ » فسأله سالم : « مالها ؟ » فقال الخادم : « ألم تكن تسأل عنها ؟ » فقال باستغراب : « هل سألتك عنها ؟ » قال : « آه ! هذه هى خارجة » وكان هذا صحيحاً ، فهمّ بأن يتبعها ، ولكنه أحجم فقد صار حسبه أن الخادم يعرف من هى ، ثم سأله : « هل قالت الريسة ؟ الريسة أين ؟ » قال : « فى مستشفى الدكتور » فسأله : « هل للدكتور مستشفى خصوصى ؟ » قال الخادم : « طبعاً أحسن مستشفى » فسأله : « ماذا يعالجون فيه ؟ » قال : « كل الأمراض » وهم بأن

يسردها ، ولكن سالماً قطع عليه الكلام بأن دس فى يده عشرة قروش أخرى وقال — أوصاح — « هذا أحسن طبيب وأنا أسعد الناس » فقال الخادم : « الله يشفيك يا بك ! »

* * *

وجاء دور سالم فدخل على الدكتور جميل ، وكان طويلاً مديد القامة ، وشاباً ولكنه يؤثر أن يترك عثنونه ليزيد وقع علمه وفعل طبه بوقار الشيخوخة المستعار

وسأله الدكتور : « مالك ؟ »

فابتسم سالم وفرك كفيه ، وراح يصف الأمراض التى يسمع بها ولا يعرفها ، ويزعم أنه مصاب بها جميعاً وفى وقت معاً . وكان الدكتور يصغى إلى وصف حالته وآلامه فيقطب ، ثم يزداد تقطيباً ، حتى صار جبينه كالحصير ، ولما فرغ سالم من الوصف نهض الدكتور وزام وهو يتمشى وقال « ارقد هنا »

وفحصه بعناية وجعل وهو ينقر على بطنه ويتحسس أمعاءه ويضغط هنا وهناك ويزوم ويهز رأسه آسفاً ، وسالم يرى ذلك فيخفق قلبه طرباً ، ثم قال الدكتور : « البس ثيابك ... واسمع ... »

فأقبل عليه سالم بوجهه وقال : « نعم نعم ؟ »

فقال الدكتور : « إنى آسف ... مرضك صعب ويحتاج إلى عناية شديدة ووقت طويل ... والنتيجة (وهز كتفيه) لا أدرى ... قد تشفى أو لا تشفى ... »

فسر سالم جداً وقال بلهفة : «ألا ترى يا دكتور أنه يحسن أن أدخل المستشفى لينتظم العلاج ويؤمن الخلط ؟ »

فقال الدكتور : « بالطبع المستشفى أحسن وأضمن ، ولكن المسألة متعلقة بك »

فكاد سالم يرقص من الفرح وقال : « هل أستطيع أن أدخل الليلة ؟ »

فسأله الدكتور بدهشة : « الليلة ؟ ولم هذه العجلة ؟ »

فقال سالم : « خير البر عاجله ... شىء لا بد منه لماذا نؤخره ؟ إنى أكره التلكؤ والبلادة والتردد ... نعم الليلة »

قال الدكتور وهو يتأمله : « حسن ، سأرى . إنك أغرب مريض رأيته ... لا يبدو عليك أقل إدراك لخطورة حالتك »

قال : « بالعكس ... أنا واثق أنها خطرة جداً وأنها ستكون أخطر إذا بقيت خارج المستشفى دقيقة واحدة »

قال الدكتور : « كما تحب »

وتناول التليفون

* * *

كانت مصحة الدكتور جميل بك فى حى هادئ تحيط به البساتين ، وكان النظام فيها دقيقا والعناية شديدة بالمرضى ، وكان فيها درجتان اثنتان ليس الا ، فليس للفقير فيها محل ، ولا نحتاج ان نقول ان سالما آثر أن ينزل فى الدرجة الأولى ، لا حباً فى الوجاهة أو الفخفخة ، وان كان ماله كثيرا ، بل لأنه أراد أن يكون أقرب الى الريسة خديجة وأدنى وسيلة إليها . وكان رأى الدكتور جميل فيه قد سبقه الى المصحة ، فعلم كل من فيها أن مريضا مدنفا قد يصبح هامة يوم من الأيام فى شهر من الشهور المقبلة قادم ليقيم فى المصحة ويراقب ويعالج ما أمكن العلاج ،

فلما رأوه يدب على الأرض وهو داخل كأنما هو ذاهب الى مرقص ، ويصفر وهو يمشى ، ويدير العصا بين أصابعه ، دهشوا وبهتوا وخيل إليهم أن فى الأمر خطأ أو أن هزّ الا زعم أنه هو المريض وجاء بدلاً منه . وفركوا عيونهم التى لم يصدقوها وأحاطوا به — رجالاً ونساء — وراحوا يصعدون عيونهم الى وجهه ويصوبونها الى قدميه ، ثم ينظر بعضهم الى بعض مستغربا وأفواههم مفتوحه من فرط الدهشة ... أهذا هو المريض الذى يخشى على حياته من الفساد الذى فى معدته وأمعائه ؟ ... الفساد الذى لا يكاد يكون له علاج ؟ ... أهذا هو الذى يدير عينه فيهم كأنما يفتقد شيئاً لا يراه ولا يدرى أين يلتمسه ؟ ... لو كانت الظاهر تصدق لكان هذا خليقا أن يكون ملاكا ! فالحق أن الدكتور جميل بك آية من آيات الله ! ... كيف عرف ياترى داءه الدفين الذى لا يشى به مظهره الخداع ؟ ؟

وسألهم سالم ، وهم حافون به فى غرفته : « قولوا لى ... هل أنتم كل من هنا ؟ »

قالوا : « نعم »

قال : « إذن هناك خطأ ... أين الريسة ؟ »

وكاد يقول : « خديجة » ولكنه آثر أن يكبح نفسه

فتقدمت احدى الفتيات فنظر إليها مبتسماً وقال : « أنت ؟ هل أنت الريسة ؟ » ثم خطر له خاطر فأضاف : « الريسة الوحيدة ؟ »

قالت : « لا ... هذه ليلتى ... »

قال : « آه ... بالطبع ... أين التليفون ... اطلبوا لى الدكتور حالا »

فظنوا أنه يعانى ألما باطنا يتشدد ويتجلد ليكتمه فخرج ثلاثة أو أربعة منهم ، يعدون ، وبقيت الريسة فقال لها : « إسمعى ... متى تكون الريسة خديجة هنا ؟ »

قالت : « غدا صباحا ... لماذا ؟ . هل تعرفها ؟ »

قال : « لن أعرف أحدا إذا لم أعرفها ... أخبريها أنى أريد أن أكلمها قبل أن تغير ثيابها ... مفهوم ؟ »

فحدثت الريسة نفسها أن مريضا مثله مشفيا على التلف جدير بأن يجاب الى رجاء كهذا لا ضير منه ، وفى هذه اللحظة جاء من يدعوه الى التليفون فذهب وتناول السماعة وقال :

« إسمع يا دكتور من فضلك ... إنى لا أحب أن أرى حولى ناساً وجوههم بيضاء ... السمرة هى اللون الذى أحبه ولا أطيق سواه ، فاذا لم يكن عندك ممرضة أو ... أو ... أو ... ريسة سمراء فانى أخرج الآن ... لا يمكن أن أبقى ... لا فائدة من أى علاج ... »

فقال الدكتور : « أوه لا تخف ... اطمئن ... سنجد لك ممرضة سمراء ... انهن كثيرات »

فصاح فى التليفون : « لا لا لا لا . ليست كل سمراء صالحة ... سمراء واحدة هى التى يمكن أن أطمئن إليها وأرضى أن أضع نفسى بين يديها »

فسأله الدكتور : « من هى ؟ »

قال : « لا أدرى . . لقد رأيتها فى منامى . . وأحلامى كلها صادقة . . لا يكذب واحد منها . . ومتى رأيتها عرفتها . . فاذا لم تكن هى التى بدت لى فى حلمى ، فان أبقى دقيقة واحدة هنا . . وهذا شرط لا سبيل إلى النزول عنه »

قال الدكتور ملاطفاً : « سنرى غداً . . انتق من شئت ممن عندنا من السمراوات »

قال : « وتكون لى خاصة . . لا تعنى بأحد سواى . . وأؤدى أنا نفقاتها . . مفهوم ؟ »

فقال الدكتور : « لا بأس . لا بأس . مسألة بسيطة . ولكن يجب ألا تقلق نفسك أو تزعجها بأمر كهذا . . . سنفعل كل ما يسعنا لنكفل لك الراحة ؛ والآن اذهب ونم »

فنام مطمئناً . . .

وفى الصباح جاءت التى أدخلته المصحة ، ووقفت أمامه تبتسم له ، وعليها ثوب أبيض قصير الكمين ، فحدث نفسه بنعمة الله عليه ، وقالت له وهى تدير عينه فى الغرفة : « إن ثيابك لا تزال فى الحقيبة » ومضت إليها لتخرجها وترصها فى الخزانة فقال : « أوه . . لا تتعبى نفسك فانى أستطيع أن أرتبها » فقالت : « ولكن هذا واجبى . إنى أفعل ذلك لكل مريض أكون عنده أو أحضر دخوله » فصاح بها : « إذن يجب أن تكفى عن هذا . مريض واحد هو الذى يجب أن تقصرى عنايتك عليه . هذا كان اتفاق مع الدكتور الذى قال إنه ليس فى مصر كلها إلا فتاة واحدة يأتمنها على » فسرت الفتاة وقالت : « هل قال هذا حقيقة ؟ إذن سأتولى أمرك بالنهار ؟ » فقال : « بالنهار وبالليل » ؛ فنظرت اليه وانحنت على الحقيبة لتخرج منها الثياب وترصها فى الخزانة ، وقالت وهى تفعل ذلك : « إن ذوقك جميل . . . هذه المنامات (البيجامات) بديعة » فسره هذا وحدث نفسه أن البداية طيبة وقالت : « والآن سأخرج وأجىء باللبن » فوجم وطال وجهه ، لسببين : أحدهما أنها خرجت فركد الجو حوله ، والثانى أنها ستجيئه باللبن وليس أبغض اليه منه ؛ على أن غيابها لم يطل ، فقد رجعت بعد قليل وفى يدها كوب وقالت : « اشرب هذا » فالتفت اليها وقال : « اسمعى . هل هذا اللبن ضرورى ؟ » قالت . « بالطبع . إنه غذاؤك الذى أشار به الدكتور » فقال : « لا بأس ! من يدك أتقبل أى شىء » ورد اليها الكوب فارغاً فهمت بالخروج فقال : « إلى أين ؟ » قالت : « سيجىء الدكتور بعد قليل فاستعد للقائه » ، فسألها : « وما الداعى لحضوره ؟ . ألست قد دخلت المصحة وانتهى الأمر ؟ » فضحكت وقالت : « سيعيد فحصك »

وجاء الدكتور كما قالت — بعد قليل — وأعاد الفحص وأتعبه به ، وآلمه أيضاً ، ثم اعتدل بعد طول الانحناء عليه وقال : « خديجة . لا شىء إلا اللبن » ففزع سالم وقال : « ولكنى قلت إنى أمقته ؟ » فقال الدكتور وهو لا ينظر إليه : « لا شىء إلا اللبن » وخرج

فدنت منه وكان قد أغمض عينيه ، يائساً ، وراح يسأل نفسه : « كيف يمكن أن يعيش على اللبن وحده ؟ . . إن هذا سينتهى به إلى ما يتوهم الدكتور أنه مصاب به ولا شك » وأحس خديجة تلمس يده ففتح عينيه مسروراً فألفاها تجس نبضه وسمعها تقول : « تعبان ؟ » قال : « ميت » قالت : « مسكين . . هل تحس ألماً ؟ » قال : « كلا . إنما أحس أن دمائى تغنى فى عروقى . . خلى يدك على يدى » قالت : « هذا من أعراض المرض .. تعترى المرء نوبات من النشوة ... »

فقال : « اسمعى ... أليس عندكم شىء من الويسكى »

فصاحت به : « إيه ؟ »

قال : « ويسكى ... جون هيج ... بالصودا »

قالت : « إنك أغرب مريض رأيته فى

حياتى ! . . ألا تعلم أن هذا يقتلك ؟ »

قال : « ألم يقل لك الدكتور إنى ميت لامحالة ؟ فماذا يهم ؟ سيان أن أموت بالويسكى أو باللبن ... بالويسكى أحسن ... وألذ أيضاً »

قالت : « يخيل إلى أنك مزيف ! »

قال : « سلى الدكتور ... صدقيه إذا كنت لا تصدقينى »

قالت : « لقد أمرنى أن أدلك لك معدتك »

قال : « بالطبع ... هذه هى ... إنه دكتور حكيم ... »

* * *

ولو أن غذاءه ظل مقصوراً على اللبن لمات كما قال لنفسه ، وهو يشرب الكوب الأول منه ، ولكن خادمه كان يجيئه — سراً — بما يشتهى فيأكله خلسة . فاتفق يوماً أن دخل عليه الخادم بفطير وكان قد غاب يومين فتضور سالم ، فلما رآه مقبلاً صاح به : « أين كنت كل هذا الدهر ؟ . إنى أموت جوعاً هنا » قال : « يا سيدى لا تؤاخذنى ... لقد جئت يومين ولكنهم كانوا يفتشوننى ويأخذون ما معى . . غير أنى استطعت اليوم أن أغافلهم وقد خبأت هذه الفطيرة . . » فتناولها سالم بسرعة ومال عليها بفمه فملأه بقضمة كبيرة منها ، وأراد أن يقول له اغلق الباب ، ولكن فمه كان محشواً فعجز واكتفى بالاشارة إليه ، وعرف الخادم المراد فوقف وراء الباب وأسند ظهره إليه لأنه لم يجد مفتاحاً . وأقبل سالم على الفطيرة يلتهمها بأسرع مما كان يتوهم أن فى قدرته أن يصنع ، ولم يكد يفرغ حتى سمع نقراً خفيفاً جعل يقوى . فقد كان يشير للخادم ألا يفتح ريثما يمسح فمه ويعفى على آثار الفطير . ثم دخلت خديجة وقالت : « ما معنى هذا ؟ . هل كنت تصنع شيئاً مخالفاً للأوامر ؟ » فقال بابتسام — فقد ارتاح لما أكل وأحس بالامتلاء — « وماذا أستطيع أن أصنع هنا غير ما ينبغى ؟ » فقالت : « إنه يبدو عليك أنك خالفت الأوامر » قال : « أبداً . كل ما حدث أن حسن هذا جاءنى بخبر سار جداً . . فأنا لهذا منشرح الصدر ... اسمع يا حسن ... هات لى كل يوم خبراً سارا ... إن خير علاج هو الأخبار السارة ... أليس كذلك ؟ »

فأحست خديجة أنها غلبت فسكتت وأقبلت على السرير ترتبه وقالت وهى تفعل ذلك : إن الدكتور آت . ولم تكد تفرغ حتى دخل وأوسعه جساً وضغطاً وتنقيراً حتى كاد يجن ، وقال وهو يفعل ذلك : إنه يظن أن فى المعدة شيئاً غريباً ، فأدرك سالم أنها الفطيرة وكاد يضحك لولا ما هو فيه من الهم . ثم قال الدكتور : « لقد رأيت إبدال اللبن بعصير البرتقال ليس إلا . . . واست أرى داعياً لاجراء عملية . . وسأرى ما يكون . . »

وظل ثلاثة أيام يشرب عصير البرتقال ولا يصل إلى شىء سواه ، لأن الخادم عجز عن تهريب أى شىء ، فضعف وقلت حركته وبدا عليه الهزال ، وساء خلقه أيضا ، مع غير خديجة بالطبع ، كما لا نحتاج أن نقول . وكانت أخبار شراسته مع الممرضات وغيرهن تبلغ الدكتور جميل ، فيزداد اقتناعاً بأن هذه الحالة العصبية التى تغرى بالاعتداء باللفظ أو اليد مما يؤيد صحة التشخيص ويستوجب زيادة العناية والتدقيق . وكان العزاء الوحيد الذى يساعد سالماً على الاحتمال والصبر ، هو وجود خديجة إلى جانبه أكثر الوقت وقد استطاع بالعنف مع سواها ، وبالمال الذى يبذله المصحة ولمن فيها

أن يحتكرها لنفسه ، وأعانه على ذلك أن الدكتور جميل يعطف عليه ويرثى له ، ولكن الخادم قلق وأشفق على سيده ، وكان قد رباه وحمله صغيراً وظل معه بعد وفاة أبويه ، فلم يسعه إلا أن يفضى بوساوسه وهواجسه إلى عمه — عم سالم — وإن كان سيده قد أمره ألا يخبر أحداً أنه دخل مصحة . فجاء العم وزار ابن أخيه ، وألح عليه أن يفضى إليه بالحقيقة وأن يطمئن قلبه ، فقال له سالم إنه بخير ، ولا خوف عليه ، وأن كل ما فى الأمر أنه « مريض جداً » !! فضحك العم ، وكان ظريفاً كيساً ؛ وقال لابن أخيه ، إذن قم والبس ثيابك

واتفق أن خديجة كانت فى ذلك الوقت تهم بالدخول ، فلما رأت هذا الزائر وقفت ونظرت منه الى مريضها ، وحدق فيها العم والتفت الى ابن أخيه وسأله :

« أهى هذه ؟ »

فهز سالم رأسه أن نعم

فقال العم : « إنك معذور ... »

وكانت خديجة تسمع هذا الحوار وتتعجب ، ولا تفهم شيئاً ، فأشار إليها سالم أن تدنو وأن تجلس على السرير ، فترددت ، فألح ، فأطاعت ، فقال لها :

« هذا عمى . إنه كما ترين ، لا يخيف ... وهو يدعونى الى الخروج من هنا ، والعود إلى البيت ، وأنا أصر على البقاء ، لأن حياتى هنا أملأ وأمتع .. إلا إذا قبلت أن تذهبى معى إلى البيت »

فقالت : « ما ذا تقول ؟ لست فاهمة »

فقال العم : « يا ستى هذا مريض مزيف .. متمارض من أجلك »

فنظرت إليهما كالمذهولة ، وتذكرت أن سلوك سالم لم يكن سلوك مريض مدنف مشف على الهلاك وسرها فى قرارة نفسها أنه تمارض من فرط حبه لها وأنه إنما أراد أن يكون قريباً منها ، واشتهت أن تسمع هذا منه هو ، لا من عمه فقط

ولم يخيب سالم أملها فقال : « صحيح وسأنص عليك القصة . . . شاب خجول لا يستطيع أن يكلم فتاة ، فاذا حاول أن يكلمها وقف لسانه فى حلقه ، وماله كثير ولكن ما خير المال وحده ؟ فاتفق يوماً أنه شرب كاسات من الويسكى صرفاً ، ورأى بعد ذلك أجمل فتاة فى الدنيا ، ونظرت إليه الفتاة فابتسمت ، وكانت هى الوحيدة التى رأت وجهه وابتسمت ، فجرى وراءها ، ولم يكن مريضاً ولكنه اضطر أن يخترع لنفسه مرضا يسوغ به اقتحامه عيادة طبيب ، فاخترع واخترع حتى طار عقل الطبيب المسكين ، وقد أحب هذه الفتاة حب عبادة ، وفى سبيلها صبر على اللبن الصرف واحتمل عصير البرتقال ... يا لها من تضحية ! ! وهو يحيا وحده ، بلا أنيس أو إلف ... وبيته موحش ، فهل تظنين أن الفتاة يمكن أن ترضى بهذا المجنون زوجاً لها ؟ »

وكان العم ينظر إليها معجباً ، ويبتسم لها مشجعاً ، فقالت وقد وقع من نفسها أن سالما عرض نفسه للهلاك من أجلها « ولكنى لست سوى ممرضة ... لست كفؤاً لك »

فقال وهو يضع ذراعه على خصرها : « ستظلين ممرضة ... فقد أصابنى فى طفولتى أ ... أ ... »

فضحكت ونهضت عن السرير وقالت : كفى اختراعاً ... »

وخرج الثلاثة ، بعد قليل ، معا ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

كانا فى وقت ما يشغلان منصبين من مناصب الحكومة

وكان كلاهما فارغ الرأس . ومن أجل ذلك وعلى غرة منهما وجدا نفسيهما « يشحنان » إلى جزيرة غير مأهولة كأنما ينقلهما إليها بساط سليمان

وكانا قد قضيا عمريهما فى ديوان حكومى نشآ فيه وتربيا وشابا ؛ وكأنما قد ولدا به أيضاً . وهما من أجل ذلك لا يعرفان أى شىء لا يتصل بأعمالهما . وكل الذى يعرفانه ينحصر فى الصيغ الديوانية المألوفة التى تنتهى بهذه الجملة : « وتفضلوا بقبول احترامى »

لكن هذا الديوان ألغى وأقالتهما الحكومة فهاجرا ، بعد إذ أطلق سراحيهما ، إلى شارع بوديشسكايا فى بطرسبورج . وكان لكل منهما فيه منزله وطاهيه ومعاشه

ولما استيقظا من النوم فى الجزيرة التى « شحنا » إليها ، وجدا نفسيهما نائمين تحت لحاف واحد . ولم يفهما بالطبع فى البداية ماذا أصابهما ؛ فأخذا يتكلمان كما لو كان الأمر بينهما يجرى على عادته

قال أحدهما : « ما أغرب الحلم الذى رأيته ليلة الأمس ياصاحب السعادة ! لقد رأيت فى الحلم أنى نقلت إلى جزيرة غير مأهولة »

لكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى وثب من مكانه ووثب الموظف الآخر أيضاً ، وقال فى دهشة شديدة : « ولكن أين نحن الآن ؟ وهل كان ما رأيناه حلماً ؟ »

ولبس كل منهما الآخر ليستوثق هل هو فى حلم أو يقظة . وكان أمامهما المحيط ، ووراءهما متسع قليل من الأرض خلفه المحيط أيضاً ، فبكيا لأول مرة بعد أن ألغى ديوانهما

ونظر كلاهما إلى الآخر فرآه لا يرتدى غير قميص النوم ، وقد علقت فى جيبه صفيحة عليها رقم . وقال أحدهما : « الآن موعد تناول القهوة ؛ ولكن من لنا بها الآن ؟ » ثم عاد إلى البكاء وقال : « ما الذى نفعله ياصاحب السعادة ؟ إننا لو كتبنا تقريراً فكيف نبعث به ؟ »

فأجابه الموظف الآخر : « سأخبرك بالذى يجب أن نفعله ياصاحب السعادة : أنا أذهب شرقاً وأنت تذهب غرباً ، ثم نعود إلى الاجتماع هنا ، وإذا اهتدى أحدنا إلى رأى تشاورنا فيه »

وهنا اختلفا فى تعرف الشرق والغرب وتذكرا قول رئيس الديوان :

« إذا أردت أن تعرف الشرق فاجعل الشمال أمامك ، فالذى على يمينك عند ذلك هو الشرق » ، ولكنهما لما أرادا أن يعرفا أين هو الشمال اتجها نحو كل الجهات دون أن يهتديا إليه . ولأنهما قضيا كل حياتيهما فى دار المحفوظات ؛ فقد ذهب مجهودهما هذا عبثاً

وقال أحدهما : « أرى يا صاحب السعادة أن يذهب أحدنا إلى اليسار والآخر إلى اليمين »

وكان هذا الموظف قد اشتغل فضلاً عن عمله فى دار المحفوظات بتدريس علم الخط وقتاً ما ، فهو لذلك أذكى قليلاً من صاحبه

وكان كما اقترح . أما الموظف الذى ذهب إلى اليمين فوجد أشجاراً تحمل كل أنواع الفاكهة ؛ وكان بوده لو يستطيع تناول تفاحة ، ولكن الثمر كان شديد العلو فلا يستطيع الحصول عليه إلا إذا تسلق الشجر . وقد حاول أن يتسلق إحداها ، ولكن ذهبت محاولته سدى . وكل الذى نجح فيه أنه مزق قميص نومه

وألقى نظرة على الماء فرآه ممتلئاً بالسمك ، فتمنى لو أن كل ما فيه من السمك معروض للبيع بشارع بود شسكايا . ولما مر هذا الخاطر بذهنه جرى لعابه . ومشى فى الغابة فرأى كل أنواع الطيور والأرانب والغزلان فقال :

« يارب ما أكثر رزقك وما أقل قدرتنا على الحصول عليه ! »

واشتدت عليه وطأة الجوع . وعاد إلى المكان الذى اتفق مع صاحبه على لقائه فيه فوجده فى انتظاره

قال : « ما ذا وجدت يا صاحب السعادة ؟ » فأجابه صاحبه : « لم أجد غير عدد قديم من جريدة الوقائع الرسمية » . فأخذ يحدثه عما وجده هو . وجلس الموظفان ، ثم حاول كل منهما أن ينام ولكن خلو معدتيهما من الطعام سبب لهما أرقاً شديداً . وكان من أسباب الأرق أيضاً تفكيرهما فى المعاش المرتب لكل منهما ، وفيمن يتقاضاه عنهما الآن فيتمتع به دونهما . وكان من أسباب الأرق فضلاً عن ذلك تفكيرهما فيما بالجزيرة من سمك وسمانى وأرانب وفاكهة وأن ليس فى مقدورهما الحصول على شىء منها

قال أحد الموظفين : لا أعرف كيف نعيش هنا ؟ إننا حتى لو استطعنا الحصول على طائر فكيف نذبحه وننظفه ونطبخه ؟ كيف يحدث كل ذلك ؟

فأجابه الآخر : « إننى فى الحق لا أفهم كيف يحدث كل ذلك »

ثم عادا الى الصمت وحاولا أن يناما ، ولكن قبل أن تغتمض عيونهما مر سرب من السمانى فتخيلاه وهو مقلى على الأطباق . وقال أحد الموظفين : « لقد هممت من شدة الجوع أن آكل حذائى » فأجابه الآخر : « إننى سأمتص جوربى »

ونظر كل منهما الى الآخر نظرة شر كأن نفسه تحدثه بأن يأكل صاحبه ؛ ثم صرخ كل منهما صرخة جنونية كأنها عواء الذئب . وقال الموظف الذى اشتغل مرة بالتدريس : « أظننا لن ننتظر حتى يحاول أحدنا أن يأكل الآخر » فأجابه : « وكيف نفعل ؟ إننا بلا ريب سنلاقى الموت ؛ فما رأيك يا صاحب السعادة ؟ »

قال : « يجب أن نقطع الوقت بالمحادثة ، وإلا فان واحداً منا سيأكل الآخر لا محالة » فأجابه الموظف الآخر : « ولكن ماذا نقول ؟ إبتدىء أنت ! »

قال الموظف الذى كان مدرساً : « قل لى لماذا تشرق الشمس أولاً ثم تغرب ؟ ولماذا لا يكون العكس ؟ » فأجابه الآخر : « هذا سؤال مضحك ياصاحب السعادة . إن الشمس تشرق لكى نستيقظ ونذهب كل منا إلى الديوان ، ثم تغرب لكى ننام »

قال : « ولكن لماذا لانفترض العكس فنذهب عند شروق الشمس إلى الفراش فننام ونحلم ، وعندما تغرب الشمس . . . » فقاطعه الآخر قائلاً : « إن

هذا القول لا يستقيم مع التفكير ، لأن شروق الشمس يحمل الانسان على الاستعداد للذهاب ، كما أن غروبها يحمل الانسان على طلب العشاء »

وقد أفسدت كلمة العشاء المحادثة لأنها هاجت جنون الموظفين الجائعين ، فقال أحدهما : « إن أحد الأطباء قال لى إن الانسان يستطيع أن يعيش مدة ما بما فى جسمه من سوائل . فقال الآخر : « لا أفهم ماذا تعنيه »

قال : « هذا يعنى أن فى الجسم أنواعاً مختلفة من السوائل ، وأن بعضها يتحول إلى بعض حتى تصير الى الخلاصة الغذائية » فقال الآخر : « وماذا يحدث بعد هذا ؟ »

قال : « يحتاج الانسان فى النهاية الى طعام جديد ليتحول الى الأنواع المختلفة من تلك السوائل » فقال : « إذن فالعبرة كلها بالطعام ! لعنة الله على الطعام ! »

وأدرك الموظفان أن هذا النوع من الحديث لا يؤدى الى الغرض الذى يقصدان إليه ، بل هو يزيد من شهوتيهما فقررا أن يتركا الحديث ؛ فلما طال بهما الصمت تذكر أحدهما الوقائع الرسمية فتناولها ليقرأ فيها لصاحبه . ولكن انتهت الفقرة الأولى — وهى خبر وليمة رسمية — إلى ذكر أنواع الطعام ، فأخذ الآخر منه الجريدة ليقرأ خبراً آخر . وأخذ يقرأ ، ولكن الخبر — وهو استكشاف جديد — قد انتهى باقامة حفلة تكريم ، وتناول أيضاً ذكر الطعام

ودفع بالجريدة إلى صاحبه فقرأ فيها فقرة لا تتعلق بدايتها بالطعام ، ولكنها انتهت إلى ذكره أيضاً . فأطرق كلا الرجلين وتثاءب تثاؤباً مؤلماً

ثم برقت عينا صاحب السعادة إذ خطر بباله خاطر سعيد . ووقف فجأة ليعلن استكشافه وصاح : « ماذا تقول ؟ لقد عرفت السبيل إلى النجاة ، فماذا تقول إذا أتينا بخادم ؟ »

فصاح الآخر : « وكيف نأتى بخادم يا صاحب السعادة ؟ وأى صنف من الخدم نجده هنا ؟ »

فقال : « خادم بسيط كسائر الخدم يستطيع أن يعد لنا الطعام وأن يصيد السمك ويطبخهما »

قال : « هذا حسن ولكن كيف نجده ؟ »

فقال : « لماذا ؟ إن الخدم موجودون فى كل مكان . إننا نقوم فنبحث حتى نجد واحداً منهم . ولا بد أن يكون هنا خادم على الأقل »

اطمأن الموظفان إلى هذه الفكرة . وقام كل منهما ليبحث عن خادم . وطالت مدة بحثهما ، ولكنهما لم تذهب سدى ، فقد وجدا فى النهاية رجلاً أسود اللحية على جسمه ثوب من جلد الماعز وهو نائم تحت شجرة ؛ فلكزه صاحب السعادة وصاح : « كيف تنام هنا ونحن موظفان نكاد نموت من الجوع . قم ! »

فنهض الخادم ونظر الى الموظفين وكان أول ما هم به أن يفر ، ولكنهما أمسكا بثلابيبه فاستسلم المسكين للقدر المقدر عليه ، وصدع بالأمر وتسلق شجرة تفاح فجمع للسيدين الجديدين خير ما فيها . وقطف تفاحة توشك على الفساد ، فجعلها لنفسه . ثم نزل عن الشجرة ، فجمع مقداراً من البطاطس وأوقد النار بضربة حجرين فى وسط هشيم وطبخ البطاطس ؛ وفى أثناء ذلك صاد أرنباً فأضافه الى الطعام . وصاد كذلك زوجاً من السمك ؛ فأدرك الموظفان مقدار ما لقياه من السعادة بقرب هذا الخادم . ونسيا أنهما كادا يموتان من الجوع منذ قليل . وقال كل منهما للآخر : « ما أسعد حياة الموظف ! »

وقال لهما الخادم : « هل أنتما مسروران ؟ »

فقالا : « نعم ونحن نقدر خدماتك »

قال : « فهل تسمحان لى الآن بأن أستريح ؟ فقالا : « نعم على شرط أن تأتى لنا بحبل أولاً » فذهب وجمع أليافاً طويلة ولم يزل يفتلها حتى صنع منها حبلاً

طويلاً متيناً فسلمه اليهما واستأذن فى السماح له بالراحة فقيداه بالحبل وأذنا له بأن ينام فى ظل الشجرة المجاورة

وزاد حذق الخادم فى تهيئة الطعام فزاد الموظفان بدانة وصحة . وقال أحدهما للآخر وهما يتناولان طعام الافطار : « ما رأيك يا صاحب السعادة ؟ هل تعتقد أن قصة برج بابل قصة رمزية أم قصة واقعية ؟ »

فقال : « إنها بلاشك قصة واقعية ؛ والدليل على ذلك كثرة ما فى العالم من اللغات . وإلا فكيف تنشأ اللغات لولا تبلبل الألسن ؟ »

قال الآخر : « وهل تعتقد أن قصة الطوفان صحيحة ؟ » فقال صاحب السعادة : « نعم بغير شك . ودليلها وجود أنواع كثيرة من الحيوان » وتناول عدد الوقائع الرسمية فأخذ يقرأه للمرة العاشرة من أوله إلى النهاية

لكن السأم دب الى نفسيهما ، فقد كانا يذكران ثيابهما الرسمية ومعاشهما وظاهيهما فى بطرسبورج فتذرف عيونهما الدمع

وقال أحدهما : لاأعرف كيف شارع بوديشسكايا الآن يا صاحب السعادة » فقال : لا تذكرنى به فقد كاد يقتلنى الحنين إلى الوطن »

قال الآخر : « إن الحياة هنا لذيذة لا عيب فيها ، ولكن الحمل يتوق الى ثدى أمه ، ونحن نتوق الى رؤية بلدنا والى ارتداء ثيابنا الرسمية فى يوم قبض المعاشات على الأقل

قال صاحب السعادة : « إن الملابس الرسمية حتى ولو كانت من الدرجة الرابعة تسر الانسان وتنسيه متاعبه

واستدعى الموظفان الخادم ليشير عليهما برأى لكى يعودا الى شارع بوديشسكايا ، وقد كان من حسن الحظ أن هذا الخادم الذى يعرف كل شىء قد عرف هذا الشارع أيضاً ؛ وكان أيضاً خادماً فى المنزل المجاور للديوان الذى كانا به

ولم يكن من المستطاع طبعاً أن يطلب هذان الموظفان الى الخادم شيئاً فيتردد ضناً منه بلذتهما وسرورهما ، ففكر فى الوسيلة المؤدية الى عودتهما ، وصنع لهما من أشجار الغابة سفينة لم تكن كسائر السفن ، ولكنها مجرد أخشاب مربوطة بعضها الى بعض ، وصنع لنفسه مجدافين ليتولى بمفرده تسيير السفينة

وأبدت الرحلة ؛ فكانا يلعنانه ويلقبانه بأقبح الألقاب كلما ظنا أن حياة اثنين من الموظفين ستتعرض للخطر فى سفينة هذا الخادم

وكان يقول : « لا تخافا ياصاحبى السعادة فانى وسائر الخدم معتادون تسيير هذا النوع من السفن كلما أردنا الفرار من خدمة السادة

وكان البليدان لا يعملان شيئاً فى السفينة ، فنهض الخادم مع انفراده بالتجديف بهيىء لهما الطعام مما يصيده من السمك ويشويه حتى بلغت السفينة النهر

وما كان أسعدهما عندما انتقلت السفينة من بحر البلطيق الى نهر النيفا . ودخلت السفينة قناة كترينا وهما لايزالان بها ، ولم يخطر ببالهما أن يقطعا بقية المسافة مشياً على الأقدام . وفى النهاية وصلا الى العاصمة ، فاستمر الخادم يجدف حتى وصل الى شارع بوديشسكايا

كانت سعادتهما سعادة بالغة عندما نزلا من السفينة فجلسا على أقرب مقهى من الشاطىء يشربان القهوة . وفى اليوم التالى لبسا الثوب الرسمى وذهبا لقبض المتجمد من المعاش . ولست أستطيع الاخبار عن مقدر هذا المعاش ولكنهما لم ينسيا الخادم ، فقد أهديا إليه زجاجة من الويسكى وخمسة قروش صحيحة

تمتع يا خادم !

عبد اللطيف النشار

جزاء الاجتهاد

للكاتب الانجليزى رتشارد جارنت

بقلم الاستاذ عبد الحميد حمدى

فى الصين ، وفى حكم أسرة تانج[1] ، فى مستهل القرن السابع المسيحى ، عاش حاكم صينى عالم ولكنه فقير . وكان للرجل ثلاثة أبناء : فورسى وتورسن ووانج — لى ، وكان الأولان شابين نشيطى العقل ، يجهدان نفسيهما دائما فى البحث عن شىء جديد مفيد . وكان وانج — لى ماهراً ولكن فى الألعاب التى تتطلب الذكاء ، وقد تفوق فى هذه الألعاب إلى مدى بعيد

وكان فورسى وتورسن دائمى التحدث أحدهما الى الآخر فى الاختراعات العجيبة التى سيخترعانها حتى بلغا سن الرشد ، وفى الثروة والصيت البعيد اللذين سينعمان بهما إذ ذاك . ولم يكد حديثهما يصل الى أذنى وانج — لى الذى لا يرفع عينيه إلا نادراً عن رقعة الشطرنج التى يحل عليها مسائله

ولكن أباهما كان أكثر تنبهاً الى حديثهما . قال لهما يوماً :

— أخشى ياولدىّ أن تكونا — فى دراستكما وتقديراتكما المختلفة — قد نظرتما الى قوانين بلادكما وإلا لأدركتما أن الانسان لا يصيب الثروة التى يصبو إليها بالوسائل التى صورتموها لنفسيكما

فسأل الفتيان أباهما :

— ما معنى ذلك يا أبانا ؟

فأجاب الشيخ :

— لقد قال آباؤنا بحق إن الاحترام الواجب علينا لعظماء الرجال الذين نعبدهم فى هيا كلنا بما نحن مدينون لهم به من وسائل الحياة ، هذا الاحترام لا يمكن إلا أن يتأذى اذا حاول نسلهم أن يكسفوا شمس عظمتهم وصيتهم بمخترعاتهم الجديدة ، أو اذا هم تجرأوا على أن يصلحوا ما يحسبونه غير صالح من أعمالهم . وعلى ذلك قد حرم على الناس بأمر من الامبراطور سوين أن يخترعوا شيئاً ، كما حرم عليهم بأمر من الامبراطور ووشى أن يحسنوا شيئاً من الاختراعات التى وجدت حتى الآن . ولقد فصل سلفى ، فى المركز المتواضع الذى أشغله ، من عمله ، لقوله انه يرى من الأصلح أن تكون العملة مستديرة

(*) ولد ريتشارد جارنت سنة ١٨٣٥ وتوفى سنة ١٩٠٦ وشغل وظيفة أمين الكتب المخطوطة بالمتحف البريطانى من سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٨٩٩ واشتغل فى ساعات فراغه بوضع كتابه « عشق الآلهة » الذى نقلت عنه هذه القصة

(١) أسست أسرة تانج العظيمة سنة ٦١٨ ومؤسسها هو لى يوون الذى اتخذ لنفسه اسم كاو — تاو ، وفى عهد هذه الأسرة انتشر نفوذ الصين وشهدت فترة نجاح استمرت أكثر من ثلثمائة عام

بدل أن تكون مربعة ، كما هى الآن ، وأنا شخصياً قد تعرضت لفقد حياتى لمحاولتى الجمع بين مبرد صغير وزوج من ملاقط الشعر ، فقال الفتيان :

— اذا كان هذا هو الشأن فليس وطننا بالبلد الذى يصلح لأن نعيش فيه

وعانق الولدان أباهما وتركا البيت غير مودعين أخاهما وانج لى إذ كان منهمكا فى حل مسألة من مسائل الشطرنج . وقبل أن يفارق أحدهما الآخر اتفقا على أن يعودا الى الاجتماع فى هذه النقطة نفسها بعد ثلاثين سنة مزودين بالثروة التى لم يكونا ليشكا فى أنهما سيحصلانها باستغلال مواهبهما الاختراعية فى البلاد الأجنبية . وتعاهدا فوق ذلك أنه اذا خان الحظ أحدهما فلم يحصل على جزاء مجهوده فان الآخر يشاطره ثروته

وقصد فورمين الى مهرة الصناع الذين يقطعون أحرف الكتابة من الخشب الصلب ، لاستعمالها فى طباعة الكتب ، حتى إذا وقف على أسرار صناعتهم قصد الى صانع السبائك النحاسية فدرس عنده طريق صناعة أمهات الحروف من النحاس ؛ فلما انتهى من ذلك أيضاً قصد الى عالم ممن أكثروا السياحة فى أرجاء الدنيا المختلفة فتلقى عليه اللغات اليونانية والفارسية والعربية . ثم صب عدداً من الحروف اليونانية فى قوالب من النحاس ، ووضعها فى كيس مزوداً نفسه فى الوقت نفسه بعدد من الحروف الخشبية التى قطعها بنفسه ، وسافر باحثاً عن الثروة . وبعد أن عانى الكثير من المتاعب وتعرض للكثير من الأخطار . وصل الى بلاد فارس ، وسأل أهلها عن الملك العظيم

فكان الجواب على سؤاله :

— إن الملك العظيم قد مات ، وقد فصل رأسه عن جسمه فصلاً تاماً ، ولم يبق فى فارس ملك لا عظيم ولا صغير

فسأل الفتى :

— وأين أستطيع أن أجد ملكا عظيما آخر ؟

فأجابوه :

— فى مدينة الاسكندرية حيث أمير المؤمنين يجد فى نشر دينه

فقصد فورمى الى الاسكندرية حاملا قوالبه وحروفه

ولم يكد يجتاز أبواب المدينة حتى رأى سحابة هائلة من الدخان تكاد تحجب المدينة كلها عن الأنظار . وقبل أن يتمكن من السؤال عن سبب هذا الدخان أقبل عليه الحرس فقادوه الى حضرة الخليفة عمر (١)

(١) لعل الكاتب قد اختلط عليه الأمر من تشابه اسم عمر باسم عمرو ، فالخليفة عمر بن الخطاب لم يحضر إلى مصر والذى فتحها هو القائد عمرو بن العاص ، وقد نسب المؤلف بعد ذلك إلى عمر الأمر بحرق مكتبة الاسكندرية معتمداً فى ذلك على رواية مكذوبة فندها المؤرخون المدققون ومن بينهم بعض المستشرقين

على أنه مما يؤسف له أن بعض كتب التاريخ التى تدرس الآن فى المدارس الثانوية تسجل على عمرو بن العاص هذه الرواية الكاذبة دون إشارة إلى كذبها ، وهذه الكتب قد اشترك فى تأليفها بعض كبار الأساتذة المصريين ؛ فاذا جاز لنا أن نلتمس العذر لمؤلف هذه القصة التى قد يكون الخيال والفن القصصى للوصول إلى المغزى الذى يقصد إليه هما اللذان حملاه على الأخذ بهذه الرواية المكذوبة ، كما حملاه على اختراع العبارات التى نسبها بعد ذلك إلى عمر ، فأى عذر نلتمسه للأستاذ المصرى الذى يثبت مثل هذه الرواية المكذوبة ضارباً صفحاً عن الروايات الصادقة التى أثبتها المحققون من المؤرخين وفندوا بها هذه الفرية التى دست على تاريخ عمر ابن الخطاب وقائده عمرو بن العاص ؟

فقال فورسى :

— ليعلم الخليفة أن مواطنى الصينيين قد جمعوا بين النقيضين ؛ فهم فى وقت واحد أعقل أهل الأرض وأغباهم . فقد اخترعوا فن نشر العلم والمعرفة ، وهو الفن الذى لم يوفق قط الى معرفته عقلاء الهند واليونان ، ولكنهم لم يتعلموا بل وانهم ليأبون أن يتعلموا كيف يخطون الخطوة الواحدة الصغيرة الضرورية بعد ذلك لجعل هذا الاختراع صالحاً من الوجهة العامة لجميع أبناء العالم

ثم قدم الفتى للخليفة ما يحمل من قوالب وحروف كاشفاً له عن السر كله فى فن الطباعة

فقال عمر :

— يلوح لى أنك لا تعلم أننا بالأمس قد أمرنا بحرق جميع الكتب واخفائها من فوق الأرض ، لأن ما تحويه لم يكن يخرج عن أحد أمرين : فهو إما مخالف لما جاء فى القرآن فيكون فى هذه الحال كفرا ، وإما أن يكون متفقاً مع ماجاء فيه فيكون فى هذه الحال زائدا على الحاجة وليس ثمة ما يدعو لبقائه . . . ويلوح لى فوق ذلك أنك غير عالم بأن الدخان الذى يخيم على المدينة إنما مصدره مكتبة الكفار التى أحرقت بأمرنا .

وعاد الرجل الى الصين فى بطء متحملا مختلف صنوف الآلام مستجديا قوته على طول الطريق . ووصل الى المكان الذى اتفق هو وأخوه على الاجتماع فيه ، فى اليوم الأخير من السنة الثلاثين من مغادرته اياها . فلم يجد أثراً لبيت أبيه المتواضع ، ولكنه وجد مكانه قصراً شاهقاً ، تحيط به الحدائق والمرائش وتكتنفه أشجار الصفصاف وقنوات الماء تقطعها الجسور وتحوم حولها الطيور البديعة الألوان

فقال الرجل يحدث نفسه :

— ليس من شك فى أن تورسن قد أصاب غنيمته ولن يأبى أن يشاطرنيها على مقتضى اتفاقنا

وما كاد ينتهى من هذه الكلمات التى خاطب بها نفسه حتى سمع من ورائه صوت انسان ؛ فلما التفت رأى رجلاً أسوأ منه حالا يسأله الاحسان ، ولم يك هذا الرجل غير تورسن

فتعانق الاخوان وقد انهمرت دموعهما ، وبعد أن سمع تورسن حكاية ما أصاب فورسى أخذ يروى قصته قال :

— لقد قصدت الى هؤلاء الذين يعرفون سر المسحوق الذى اصطلح على تسميته تراب النار ، الذى لم يتمكن سوين من منعنا من اختراعه ، وان كان ووشى قد اهتم بمنع استعماله الا فى الألعاب النارية . . وبعد أن وقفت على سر هذا المسحوق وضعت كمية معينة منه فى أنابيب مجوفة صنعتها من الحديد والنحاس ، ووضعت فوقها كوراً من الرصاص تتفق أحجامها مع تجاويف الأنابيب ، ثم وجدت انى بايصال اللهب الى تراب النار من أحد طرفى الأنبوبة أستطيع أن أدفع الكرة الرصاص من الطرف الآخر بقوة تمكنها من اختراق ثلاثة من دروع المحاربين فى وقت واحد ؛ فملأت برميلاً من هذا المسحوق وخبأته هو والأنابيب طى سجاجيد حملتها على ظهور الثيران ، ثم رحلت قاصداً مدينة القسطنطينية ، ولست أروى لك الآن حكاية المتاعب التى اعترضتنى فى هذه الرحلة ، ويكفى أن تعلم أننى وصلت آخر الأمر نصف ميت

من التعب والمشاق مجرداً من كل شيء إلا بضاعتي ، واستطعت بتقديم مامعي من السجاجيد رشوة لأحد الضباط أن أحصل على الاذن بالدخول على الأمبراطور[1] والتحدث ، اليه وقد وجدته منهمكا فى لعب الشطرنج يكدح رأسه فى حل إحدى مسائله

« وقد أخبرته أنى كشفت سراً يمكنه من أن يصبح سيد العالم ويساعده بنوع أخص على طرد المسلمين الذين يهددون إمبراطوريته بالخراب

فقال لى : « يجب أن تلاحظ أنه ليس من المحتمل أن أستطيع الاصغاء اليك قبل أن أنتهى من حل هذه المسألة ، ومع ذلك فلكيلا يقول انسان إن الأمبراطور يهمل واجباته منهمكا فى تسلية سخيفة ، فانى سأحيـــل اختراعك على صناع الأسلحة المبرزين فى عاصمتى ، ثم أعطانى كتاباً الى الصناع وعاد الى اللعب ، وعند ما تركت القصر حاملاً رسالة الأمبراطور صادفت فى الطريق موكباً عظيما . فالفرسان والمشاة الراكضون ، والعازفون على الموسيقى ، والمنادون ، وحاملو الأعلام — كل هؤلاء يحيطون برجل صينى يجلس فى سمت تحت مظلة ذهبية فوق فيل مسرج بسرج نفيس ، وكانت جديلته مضفرة بالورود الصفراء ، وكان الموسيقيون يعزفون ويدقون الطبول ، وحملة الأعلام يلوحون بأعلامهم فى الجو ، بينما المنادون يصيحون : هكذا يحتفل بالرجـــل الذى يغتبط الأمبراطور بتكريمه — وان لم أكن مخطئاً خطأ كبيراً فان وجه ذلك الرجل الصينى لم يكن سوى وجه أخينا وانج لى

« ولو أنى كنت فى ظرف غير الذى كنت فيه لأجهدت نفسى فى الوقوف على معنى ذلك الذى شهدت ، ولكن لهفتى كانت شديدة وكذلك كانت حاجتى وجوعى . فبحثت عن صناع الأسلحة المبرزين ، واستطعت بمشقة كبيرة أن أجمعهم كلهم فى مجلس واحد . وقدمت اليهم الأنابيب وتراب النار وانفذت رصاصتى بسهولة من أحسن درع استطاعوا أن يقدموه »

فصاح صانع دروع الصدر : « من ذا الذى يحتاج الآن الى دروع الصدر ؟ »

وقال صانع خوذ الرأس : « أو الخوذ ؟ »

وقال كبير صناع التروس : « أنا لم أكن لآخذ خمسين بيزنة ثمناً لهذا المجن ، فما فائدته الآن ؟

وقال صانع السيوف : « وستقل قيمة سيوفى »

وقال صانع السهام فى لهجة حزينة : « وسهامى ستصبح عديمة القيمة »

وصاح أحدهم : « إن هذا الا عمل دنىء »

وصاح آخر : « بل انه لسحر ساحر »

وصاح ثالث فى صوت قاصف : « إنى أنا التاجر الشريف الملم بمهنتى أقول ان ما ترونه ليس إلا وهما — ولكى يبرهن على صدق رأيه ألقى بحديدة متأججة فى برميلى ، فطار الجميع جملة مع سقف المنزل فى الهواء ، وهلكوا جميعاً ، ولم ينج سواى وقد فقدت شعرى وجلدى . وشبت فى الحال حريق أكلت ثلث مدينة القسطنطينية

« ووجدتنى بعد أيام راقداً على فراش السجن

(١) الأمبراطور كونستانس الثانى الذى حكم من سنة ٦٤١ إلى سنة ٦٦٧ وقد حارب ضد العرب المسلمين الذين استولوا من أملاكه على الشام وقبرص ورودوس وأفريقيا

وقد شفيت من بعض جروحى ، مصغيا فى حزن الى مشادة بين اثنين من حراسى حول ما يجب أن أعامل به : هل أحرق أو أدفن حيا ؟ وبينما المشادة قائمة وصل الى السجن أمر من الامبراطور باطلاق سراحى ، فقرأه الحرس ممتعضين شاعرين بشىء من الضعة ، وكان نص عبارته : اقذفوه خارج المدينة . وقد عجبوا من لين ذلك الحكم ومع ذلك أنفذوه بحماسة شديدة حتى وجدتنى قد طرت فى الهواء وسقطت وسط البوسفور ، حيث التقطتنى مركب صيد وأنزلت على الشاطئ الآسيوى ؛ ومن هناك قفلت راجعاً إلى بلادى استجدى القوت على طول الطريق

والذى أراه الآن هو أن نستعطف رب هذا البيت العظيم ونستثير شفقته ، فقد يرأف بنا عندما يعلم أننا كنا نعيش فيما مضى فى البيت الصغير الذى أخلى الطريق لانشاء قصره العامر»

واجتاز الرجلان باب الحديقة ومشيا على استحياء متجهين إلى القصر ، متأهبين للوقوع على قدمى سيده ، ولكنهما لم يفعلا ، لأنهما قبل أن يحاولا الركوع عرفا فى ذلك السيد أخاهما وانج لى

ولم يستطع وانج لى أن يعرف أخويه لأول وهلة ولكنه لما عرفهما آخر الأمر أسرع فقدم إليهما كل ما يحتاجان إليه ، حتى إذا سد حاجتهما من الطعام والشراب وارتديا فاخر الملابس قصا على أخيهما قصتيهما ، وسألاه أن يقص عليهما قصته فقال :

« أخوى ... إننى بانهماكى فى لعبة الشطرنج النبيلة التى اخترعت لحسن الحظ قبل عصر الأمبراطور سوين بزمان طويل ، لم أكن أقصد لغير التسلية المجردة من كل غاية ، ولم أفكر قط فى استخدامها لجمع الثروة إلى أن سمعت يوماً عن طريق المصادفة أن الشعوب الغربية تجهل هذه اللعبة جهلاً تاماً ، وحتى إلى هذه اللحظة لم أفكر فى كسب المال عن طريق الشطرنج ، ولكننى شعرت بشفقة شديدة على هؤلاء البرابرة المتأخرين حتى لقد أحسست أننى لن أتذوق شيئاً من الراحة قبل أن أنير عقولهم ، وتحقيقاً لهذه الرغبة الملحة قصدت إلى مدينة القسطنطينية فاستقبلت هناك كرسول من السماء ، وقد بلغ من تأثيرى فى القوم أنه لم يمض غير قليل حتى أصبح الأمبراطور ورجال دولته لا يفكرون فى شىء غير لعب الشطرنج ليل نهار ، وحتى شملت الفوضى شئون الأمبراطورية واستطاع المسلمون أن يهاجموها فى قوة وعنف . وتقديراً لخدماتى للأمبراطور رأى أن يكافئنى بمظاهر التكريم التى رأيت أنت يا أخى نموذجاً منها عند باب القصر

« وهكذا بعد أن وقع الحريق الذى تسببت أنت فيه وإن لم يكن عن عمد ، تحدث الناس بأن الامبراطور كان يعمل على تخريب عاصمته بالتآمر مع ساحر أجنبى ، يقصدونك بذلك . وبعد فترة قصيرة تآمر كبار الضباط ودخلوا مخادع الامبراطور بفكرة خلعه عن العرش ، ولكنه أعلن أنه لن يتنازل بحال من الأحوال قبل أن ينتهى من دست الشطرنج الذى كان يلعبه معى فى تلك اللحظة ، فوقف الضباط ينظرون إلينا ، ولم يلبثوا أن اهتموا بألعابنا ، وبدأ النزاع بينهم على أينا سيفوز ؛ وبينما هم فى خصامهم أقبل الضباط المخلصون وقبضوا

عليهم . وقد ضاعف هـذا الحادث مكانتى احتراماً لدى الامبراطور ، ثم لم تلبث هـذه المكانة أن تضاعفت مرة أخرى بعد ذلك الحادث بقليل عند ما لعبت مع أمير البحر المسلم الذى كان محاصراً المرفأ فربحت منه أربعين سفينة محملة غلالاً بدلت من قحط المدنية رخاء ويسراً

« وسألنى الامبراطور أن أتمنى عليه ما شئت فقلت ان كرمه لم يبق لى ما أطلبه غير حياة مواطن مسكين علمت أنه مسجون بتهمة محاولة حرق المدينة . فأمرنى الامبراطور أن أكتب أمر العفو عنه بيدى . وثق يا تورسن انى لو عرفت أن ذلك السجين هو أنت لأظهرت من الاهتمام بشخصك ما يرضيك

« وأخيراً غادرت القسطنطينية عائداً الى بلادى مزوداً بالثروة الطائلة فى ركب مريح أقطع الطريق مراحل على ظهور الابل السريعة . فلما وصلت الى هنا ابتعت بيت أبى الصغير وأنشأت فى مكانه هذا القصر العظيم حيث أعيش مفكراً فى حل مسائل الشطرنج وفى أقوال العقلاء مقتنعاً بأن الشىء الصغير الذى تعرفه الدنيا وتميل الى الأخذ به خير من الشىء العظيم الذى لم يعرفه الناس بعد ، فهم لا يستطيعون تقدير قيمته . فالعالم ليس إلا طفلا كبيراً يفضل أسباب التسلية على وسائل الثقافة والتعليم

فسأله أخواه فى دهشة وفى صوت واحد :

— اوتسمى الشطرنج مسلاة وملهاة ؟

عبد الحميد حمدى

شركة بيع المصنوعات المصرية

تعمل على احياء الصناعة المصرية وترويجها

معرض دائم لكافة منتجات البلاد

تعرض

المنسوجات الصيفية

من جميع الأنواع : قطن . حرير . كتان

بضاعة جديدة لهذا الموسم ، صنع شركات بنك مصر

التى أجمع الكل على متانتها وتفوقها

شاهدوا مبتكرات الصناعة الحديثة قبل شراء حاجياتكم

الذراع الذابلة

للشاعر الانجليزى توماس هاردى

بقلم نظمى خليل

غص الطريق بطوائف القرويات وهن راجعات إلى منازلهن الريفية الصغيرة يتجاذبن شتى الأحاديث مما يتصل بحياتهن الزوجية ، حتى إذا ما دنون من نهاية الطريق همست إحداهن بصوت خافض كأنه خارج من جوف بقرتها :

— « ألا خبرانى ، أيقترن السيد « لوج » بزوجه الجديدة غداً ؟

— لقد بلغنى هذا

— ألم تريها ؟ إنهم يقولون إنها فتاة ضئيلة الجسم موردة الخدين — قالت هذا ثم التفتت إلى بقرتها وهى تضرب بذيلها فيكاد يصافح وجهها

— فأجابتها إحدى صاحباتها : « إنها تصغره بسنوات . أتعرفين كم يبلغ من العمر الآن ؟

— حوالى الثلاثين

ثم تفرقن إلى منازلهن ، وفى الصباح التالى نادت « رودا » زوج السيد « لوج » القديمة ابنها وقالت له : « لقد بلغنى أن والدك سيتزوج من زوجه الشابة اليوم — إنى أريدك الآن أن تذهب إلى السوق حيث يمكنك أن تراها . فقال لها الابن : أعازم أبى على الزواج إذن ؟

فأجابته أمه : نعم . . . يمكنك أن تراها وأن تحدثنى عن بعض قسمات وجهها

— أجل يا أمى

— إمض بنى وخبرنى إذا كانت سمراء أو بيضاء ، طويلة مثلى أو قصيرة ، وإذا كانت تظهر ربة بيت أو فتاة ناعمة الأظافر لم تعتد بعد حياة المنزل

فانطلق الابن إلى السوق ، ولم يكد يبعد عن منزله حتى رأى والده يسير وبجانبه فتاة تصغره بسنوات . كان وجهها صافياً صبوحاً كأنه نور منبعث بين خمائل الورد . فسدد الولد إليها بصره بالرغم مما كان ينوء به ظهره ؛ وكانت الشمس قد غمرت وجه تلك الفتاة فبرزت ملامحه قوية جذابة

فاغتاظت الزوجة الشابة « جرترود » من ذلك الصبى الذى يحدجها بنظراته القوية الطويلة فقالت لزوجها :

— أنظر إلى ذلك الصبى الفقير كيف يحدجنى بالنظر !

— أجل ، قد يكون أحد سكان تلك القرية

— أظنه يعرفنا

— أجل ، يجب أن تتوقعى مثل هذه النظرات فى مثل هذا الموقف الجديد

والآن — هيا ، لم يبق على منزلنا إلا ميل واحد علنا نبلغه قبل أن يهجم الليل

أما الولد فلم يكد يصل إلى المنزل حتى ابتدرته أمه قائلة :

— ألم ترها ؟

— بلى ، رأيتها

— أهى سيدة تماماً ؟

— نعم ، إنها مكتملة الشباب وفى عينيها بريق المرأة الناضجة

— طبعاً ، وما لون شعرها ووجهها ؟

— إن شعرها كضوء النهار ووجهها كدمية الصبية

— إذن عيناها ليستا سوداوين كعينى

— لا . إنهما تميلان إلى الزرقة وفمها صغير جميل بشفتين رقيقتين تنفرجان عن ابتسامة حلوة وأسنان مفضضة لامعة

— وهل هى طويلة ؟

— لم أر طولها ، لقد كانت جالسة

— إذاً عليك أن تذهب إلى الكنيسة غداً فستجدها هناك . إذهب وراقبها فى مشيتها وأخبرنى إذا كانت أطول منى

— حسن ياأماه ، ولكن لماذا لا تذهبين أنت وتريها بنفسك ؟

— بنفسى ! إنى لن أسمح لنفسى أن أنظر إليها ولو كانت تسير تحت هذه النافذة . لقد كانت مع السيد لوج طبعاً فماذا قال أو فعل ؟

— لم يأت شيئاً جديداً

وفى اليوم التالى ألبست الأم ابنها ثوباً نظيفاً وأرسلته إلى الكنيسة ؛ فكان أول من وصل إليها وجلس فى أحد المقاعد الأمامية ، وأخذ يراقب جموع الوافدين ، وأخيراً جاء لوج ومعه زوجه الشابة وهى تتعثر فى مشيتها حياءً وخجلاً كما تفعل كل فتاة فى سنها تظهر فى المجتمع لأول مرة ، ولكنها لم تتنبه إلى نظرات ذلك الصبى هذه المرة لأن جميع الأعين كانت ترمقها

ولم يكد الصبى يستقر فى منزله حتى بادرته أمه قائلة :

« إيه ! حسن »

فأجابها ابنها إنها ليست طويلة بل قصيرة

فتنهدت أمه فقد شعرت بشىء من الارتياح

ثم استأنف الولد كلامه فقال : ولكنها جميلة جداً ، جداً يا أمى ، بل هى فاتنة . والواقع أن جمال هذه الفتاة قد ملك زمام قلب ذلك الصبى الناشىء .

فأجابته أمه : كفى . كفى . هذا كل ما أريد أن أسمعه . هيا إلى المائدة . مد عليها الخوان . إن الأرنب الذى اصطدته طرىّ شهى ، ولكن احذر أن يصطادك أحد

ولكنك لم تخبرنى ما نوع يديها

— لم أرها فقد كانت لابسة قفازها

— ماذا كانت تلبس هذا الصباح ؟

— لقد رأيتها فى ثوب أبيض هفهاف تعبث به نسمات الريح كلما هبت فتمسكه بيديها مخافة أن يتطاير عن بدنها . أما والدى فقد كانت تعلو وجهه ابتسامة الرضى ويتبختر فى سيره كأنه أحد النبلاء

ثم توالت زيارات الصبى لهذين الزوجين كلما شعرت أمه بالحاجة إلى أوصاف جديدة لهذه الزوجة الشابة ، ثم أخذت تكوّن من هذه الأوصاف صورة ذهنية لتلك الفتاة التى لم ترها بعينها

خلت الأم ذات مساء إلى نفسها ، وقد أوى ابنها إلى فراشه وبقيت هى وحيدة تتقلب فى فراشها تطلب النوم فيتأبى عليها ، ثم أخذت تستجمع فى مخيلتها هذه الأوصاف التى سمعتها من ابنها حتى غابت فى نومها فلاح لها شبح تلك الفتاة يحوّم أمام عينيها وقد ارتدت ثوبها الأبيض الهفهاف

ولكن وجهها كان قد عبثت به التجاعيد فبدت كأنها عجوز ، ثم شعرت أنها قد جثمت فوق صدرها كأنها كابوس ثقيل ، ثم أخذ ذلك الحمل يزداد شيئاً فشيئاً حتى كاد يكظم أنفاسها فهبت من نومها واستجمعت قواها ودفعت ذلك الشبح عن نفسها وهى تصيح : « يا إلهى السماء ... » ثم جلست على حافة سريرها والعرق البارد يتساقط من جبينها : لم يكن هذا حلماً بل كانت هى بعينها ، لقد لمست ذراع غريمتها وهى تدفعها عن نفسها . لمست الذراع بلحمها وعظمها — كما توهمت ذلك — ثم نظرت إلى الباب فلم تر شيئاً

لم تذق النوم فى تلك الليلة ، فلما جاء الصباح كان وجهها شاحباً كوجوه الموتى ، وكان جسمها يهتز كأنه القصبة المرضوضة ، فلم تقوَ على حلب اللبن إذ كان ينصب بعيداً عن المحلب ؛ فقد كانت لا تزال تشعر أنها ممسكة بذراع غريمتها . فلما رأى ابنها منها ذلك قال : « ماذا حدث لك يا أماه الليلة الماضية ؟ لقد سقطت عن سريرك لا شك »

— هل سمعت وقع جسم ؟ ومتى ؟

— حوالى الساعة الثانية

ثم صمتت الأم وأخذت تتناول طعامها فى تراخ وكسل ؛ ولم يبرح الابن المنزل ذلك اليوم بل بقى فيه يعاون أمه فى عملها . وفى الساعة الحادية عشرة جاءتها امرأة لم تكد تنظر إليها حتى تذكرت ذلك الشبح الذى ظهر لها فى حلمها الليلة الماضية ، ولكنها لم تر فى وجهها تلك التجاعيد والخشونة التى رأتها فى حلمها ؛ فقد كان صوتها حلواً رقيقاً ، وإشاراتها لطيفة بالغة ، وابتساماتها لذيذة وديعة ، حتى لم تعد تصدق حواسها . لقد جاءت « جرترود » الزوجة الشابة تزور صاحبتها حاملة إلى الصبى حذاءً جيداً وبعض اللعب

ثم أخذت تتردد على المنزل من يوم إلى آخر حتى أنست كل واحدة الى صاحبتها . وفى ذات يوم جاءت « جرترود » وقد امتقع لونها واستولى عليها الهزال والسأم ، فسألتها « رودا » عن علتها ، فأجابتها : « إنى أشكو مرضاً حيرنى وأعيانى وإن لم يكن ذا خطر ، ثم كشفت عن ذراعها اليسرى فنظرت إليها « رودا » وسرعان ما تذكرت تلك الذراع التى أمسكت بها فى حلمها ، ثم توهمت أنها ترى فيها آثار قبضتها وما تركته أصابعها الأربعة عليها فسألتها : كيف حدث هذا ؟ فأجابتها « جرترود » وهى تهز رأسها : « لا أدرى ؛ ولكن حدث أن كنت نائمة فرأيت فى حلمى أنى انتقلت الى مكان غريب وفجأة شعرت بألم ينتاب ذراعى فاستيقظت وأخبرت زوجى بالأمر فهونه على وقال إنه سيزول عما قليل »

— منذ كم حدث هذا ؟

— منذ أسبوعين فى الساعة الثانية

لقد كانت هى الليلة والساعة التى رأت فيها « رودا » ذلك الشبح ، فشعرت أنها آثمة مجرمة . وسرعان ما هجمت عليها تلك الأفكار القديمة ولاح أمامها شبح ذلك الحلم كما لو كان قد حدث بالأمس ؛ ثم قالت فى نفسها بعد أن ودعت صاحبتها : « أوه ! أيمكن أن يكون هذا ؟ أيمكن أن أتسلط على غيرى وأسبب لهم اضراراً على غير إرادتى ؟ ثم مضت تفكر فى شتى الحلول

تتابعت الأيام وذراع « جرترود » تزداد ذبولاً وجفافاً وشكوك الاثم تزداد يقيناً حتى لقيتها أخيراً وقالت لها : « أرجو أن تكون ذراعك قد صحت تماماً » فأجابتها « جرترود » : « لا ، إنها تزداد سوءاً على سوء ، فقد اشتد بى المرض حتى لا أقوى الآن على احتماله »

— يجدر بك أن تذهبى الى طبيب

— لقد صحبنى زوجى الى أحد الأطباء ولكن الطبيب لم يستطع أن يعرف علة مرضى بل نصحنى أن أضع ذراعى فى ماء ساخن ، فعملت كما أمرنى ولكن هذا لم يفدنى شيئاً

— أتسمحين أن أراه ؟ فكشفت عن ذراعها وأشارت الى موضع الألم وكان هذا فوق المعصم . فلما رأت « رودا » ذلك لم تستطع أن تحبس عواطفها . لم يكن هناك أثر لجرح بل كان هناك آثار الأصابع الأربعة ، الأول تجاه المعصم والرابع تجاه المرفق

— يلوح لى أن هذا من قبضة يد ، فانى أرى آثار أصابع هنا ، فاجابتها « جرترود » فى ابتسامة ضيقة ضعيفة : « إن زوجى يقول ان أحد الشياطين هو الذى فعل هذا » فانتفضت « رودا » انتفاضة عنيفة وقالت : « إن هذا وهم ، ولو كنت مكانك لما صدقت » فأجابتها « جرترود » فى شىء من التردد : « انى لا أهتم كثيراً بهذا لو لم يكن بى ماينفر زوجى منى أو يضعف من حبه لى . إن الرجال يقيمون وزناً كبيراً للمظهر الخارجى »

— أجل ولكن زوجك لا يحب سواك

— نعم كان هذا فى أول الأمر إذ كان مخموراً بى ؛ أما الآن . . .

— يمكنك أن تستريه عن نظره

— آه ! ولكنه يعرف مكان التشويه — قالت هذا وهى تحاول حبس الدموع التى ملأت عينيها

— أدعو لك بالشفاء من هذه العلة قريباً

ثم انصرفت « جرترود » وخلت « رودا » الى نفسها وقد انثالت الأفكار على خاطرها حتى أصبح عقلها هدفاً لتلك الوساوس التى جرها عليها ذلك الحلم البغيض ، وقوى عندها ذلك الشعور بالاثم حتى أخذت تؤنب نفسها على ما ظنت أنها جلبته على هذه الفتاة المسكينة بسوء نيتها إذ لم تكن تبغى أن تسبب لها ألماً جسمياً ، ثم أخذت تفكر فيما تظنه تلك الزوجة لو علمت بأمر ذلك الحلم ، ثم رأت أنها إذا كتمت عنها ذلك الأمر كان هذا خيانة أخرى منها

أخذت تفكر فى هذا طول الليل حتى إذا ما جاء الصباح خرجت لترى زميلتها وقد شعرت بحاجة قوية الى هذا اللقاء ، فلم تكد تدنو من المنزل حتى خرجت إليها « جرترود » وحيتها تحية الصباح فقالت « رودا » : « أود أن تكون ذراعك . . .

— لقد قيل لى إنه ليس هناك إلا طريق واحد أعرف به علة هذا المرض ، وقد أعرف الدواء أيضاً ، وهى أن أذهب الى ساحر يقيم فى الاقليم المجاور لنا ، ولكننا لا نعرف إن كان حياً أو ميتاً ، ولا أذكر الآن اسمه ، ولكنى سمعت أنك تعرفين عنه الكثير . إنى أحاول أن أتذكر اسمه . فقالت صاحبتها وقد امتقع لونها : « أليس اسم الساحر « ترندل »

— آه نعم هو بعينه . أهو حى ؟

— أظن هذا

— ولكن لماذا يدعونه ساحراً ؟

— لأن له السلطان على من حوله من الناس

— ما أسخف عقول هؤلاء الناس الذين يعتقدون فى مثل هذه الخرافات . لقد ظننت أنهم يعنون عالماً طبياً . سوف لا أفكر فى مثل هذا الرجل ثانية

فشعرت « رودا » بشىء من السكينة والطمأنينة فقد كانت تخشى أن يفضح ذلك الرجل أمرها عند صاحبتها فتنظر إليها كأنها شيطانة فى صورة إنسان ، كانت السبب فى تشويه جمالها والقضاء على سعادتها

لم يمض على هذا يومان حتى جاءت « جرترود »

الى منزل صاحبتها وقالت لها إن ذراعي تزداد سوءاً وأصبح الأمر جد خطير ، حتى فكرت ثانية فى ذلك الرجل الذى حدثوني عنه وإن كنت لا أعتقد فى أمثال هذا الرجل إلا أنى أشعر برغبة فى زيارته الآن . أيبعد عنا كثيراً ؟

— نعم ، هو على مسافة خمسة أميال

— حسن سأمضى إليه — ألا تصحبيننى لتدليني على الطريق ؟

فتمتمت « رودا » قائلة : « لست أنا » ثم أخذ الخوف يعاودها من جديد خشية أن ينكشف أمر حلمها فتفقد صداقة صاحبتها ، ولكنها لم تجد طريقاً للاعتذار واتفقتا أخيراً على أن يتقابلا عند نهاية الطريق حتى لا يراهما أحد

استيقظت « رودا » فى اليوم التالى وأخذت تفكر فى شتى الحلول التى تخلصها من هذا المأزق ، ولكنها لم تجد بداً من الذهاب ، فتوجهت إلى المكان المعين حيث قابلت صديقتها ، وقد أخفت ذراعها فى مئزرها ثم مضتا فى سيرهما لا تتحدثان إلا قليلاً

لقد كان طريقاً طويلاً مقفراً ، وقد امتلأ الجو بالسحب فحجبت الشمس ، وأخذت الرياح تعول وتصفر وهى تهب فوق التلال ثم تهوى إلى بطن الوادى

أما « جرترود » فقد كانت كلما فتحت موضوعاً للحديث ردت عليها صاحبتها فى إجابات مقتضبة محاولة إقفاله ؛ وكانت تشعر كلما تقدمت فى الطريق أن شيئاً ثقيلاً يجثم على صدرها حتى كرهت أن تسير بجانب الذراع المريضة أو أن تدنو منها . وأخيراً جاءتا الى الرجل ، فحيا « رودا » وقصت عليه « جرترود » قصة ذراعها ، فقال لها الرجل : ان الطب عاجز عن شفائك ؛ فان هذا من تدبير عدو . فارتوت « رودا » فى نفسها وتراجعت الى الوراء أما « جرترود » فقد صاحت : « أى عدو ! » فهز الرجل رأسه وقال : « انك تعرفينه جيداً ، ولو أردت لأريتك اياه وإن كنت أنا نفسى لا أعرفه . فلما ألحت عليه « جرترود » أن يخبرها من هو أشار الرجل الى رودا بالبقاء فى مكانها ، ثم قاد جرترود الى غرفة صغيرة وأجرى أمامها عمليته السحرية فأحضر كوباً وملأه ماء وجاء ببيضة وكسرها على حافة الكوب فنزل الزلال فى الكوب وبقى المح ، ثم حمل الكوب الى النافذة وأمر المرأة أن تنظر فيها ولكنها لم تستطع أن تتبين ذلك الوجه الذى خيل إليها أنها تراه فى الكوب . فلما خرجت كان وجهها أشد امتقاعا ، ثم عادتا الى القرية وقد شعرت رودا أن صاحبتها قد تغيرت

فعند ما سألتها عما رأت أجابتها فى شىء من التحفظ والحرج : «لاشىء يستحق الذكر» ثم علا وجهها شحوب غريب حتى أصبح شبيها بذلك الوجه الذى رأته رودا فى نومها . وبعد صمت طويل قالت جرترود :

أكنت أنت أول من فكر فى هذا الساحر ؟ عجباً لو كان هذا ...

— لا . ولكنى لست آسفة على مجيئنا الى هنا . إن كل شىء مقدر مكتوب

ثم سارتا فى الطريق دون أن تتحدثا كثيراً وقبل أن تفترقا قالت جرترود « ان الناس يتهامسون بأن علة مرضى سببها نظراتك الى . فامتقع وجه المرأة وغابت فى تفكير عميق

ولم يأت الربيع حتى كانت « رودا » وابنها

قد تركا القرية . . . .

عاشت جرترود مع زوجها ستة أعوام كانت حالتها تزداد سوءاً على سوء ، فغاض الابتسام والاشراق من جبينها ونضب الجمال من وجهها وأصبحت الذراع المشوهة مصدر قلقها وتعسها ، وفوق هذا لم تعقب من زوجها ولداً وما كان أحوجه إلى ابن يحيا فى اسمه ويرث أرضه

لم تقعد الزوجة لحظة عن السعى فى علاج ذراعها وذهبت النصائح والأوصاف الطبية فى غير جدوى ولم تجد عليها الرقى والتعاويذ شيئاً

ولكن الحنين إلى الولد كان يشتد بالرجل يوماً بعد يوم حتى لم يستطع أن يغالبه ، فجاء إلى زوجه يوماً وقال : لقد فكرت أن أتبنى ولداً ولكن الوقت قد فات فقد مضى الولد ، ولا أعرف مكانه الآن — فأدركت الزوجة الغرض الذى يرمى إليه فان قصة الزوجة الأولى « رودا » لم تكن قد غابت عن ذهنها وإن لم يتحدث أحدهما إلى الآخر عنها

كانت فى الخامسة والعشرين ولكنها كانت تبدو فوق هذه السن بكثير . فقد قضت ستة أعوام كانت كلها مجدبة ثقيلة لم تذق فيها الحب إلا شهرين . وكثيراً ما كانت تخلو إلى نفسها وتستعيد أيامها الماضية ، فتهجم عليها ذكريات مرضها فتثور وتئن ثم تتأوه قائلة : « آه لو عادت إلى أيام حبى الأول » ثم أرادت أن ترمى بآخر سهامها للشفاء من هذا الداء العياء ، فانطلقت إلى الساحر القديم ، ولم تكن قد زارته منذ ست سنوات ، فلم يكد الرجل يراها حتى تذكرها ، فذكرت له المرأة التجارب التى عملتها فهز الرجل رأسه وقال إن معظم هذه الأشياء لا تنفع — ليس هناك إلا طريق واحد ، ولكن صعب تحقيقه . وهو أن تطوق بذراعك المشوهة عنق أحد المشنوقين . فارتاعت المرأة لتلك الصورة التى رسمها فى ذهنها هذه الكلمات — ثم مضى الساحر فى كلامه : على أن يكون هذا عقب إنزاله من المشنقة مباشرة

فسألته الزوجة : « ولكن ما فائدة هذا ؟ »

فأجابها الرجل : إن هذا يزيد فى دورة الدم . عليك أن تذهبى إلى أحد السجون وتترقبى إحدى ضحاياه . لقد طالما أرسلت إلى السجن عشرات النساء اللواتى جئن إلى يشكون بعض هذه الأعراض . ثم ودعته المرأة وانصرفت وقد أبى أن يأخذ منها أجراً

عادت المرأة إلى منزلها وهى تشك فى كلام الساحر ولكنها بعد أن يئست من الشفاء اندفعت بأمل إعادة حبها المفقود بشفاء ذراعها إلى تحقيق فكرة ذلك الساحر وقد تذكرت كلماته لها : « إن ما يأتى بالرقى يذهب بالرقى أيضاً . » فقضت مدة طويلة وهى لا تفكر إلا فى المشنوقين حتى أن صلاتها لم تكن إلا بعض هذه الكلمات : « اللهم اشنق لى أحد الأشقياء أو أحد الأبرياء !! » لم ترد أن تستعين بزوجها فقد كان يضيق بأفاعيل السحر ولا يؤمن بأعمال الشعوذة

ثم جاءها يوما يخبرها بعزمه على تركها يومين لقضاء أمور خاصة به ، ففرحت الزوجة لهذا الغياب إذ وجدت فيه فرصة لتحقيق غايتها . فلم يكد يغيب عنها حتى امتطت جواداً مطهما أخذ يطوى بها الأرض حتى وصلت أخيراً إلى السجن المقصود حيث تجد فيه ضحيتها التى ارتبطت سعادتها بنهايته ، ثم ذهبت إلى الجلاد تسأله عن تلك الضحية ، فظنها الجلاد إحدى قريبات الفتى المسكين أو سيدته . فقال : إنه صبى لم يتجاوز الثامنة عشرة قد ساقه القدر إلينا عند ارتكاب الجريمة . ولم نجد غيره

تهمه . فأجابته المرأة : لست أسأل عن هذا بل أريد أن أعرف موعد التنفيذ . فقال الجلاد : فى الساعة الثانية عشرة كالعادة ، أى بمجرد وصول البريد من لندن فقد يكون هناك عفو . فارتاعت المرأة وصاحت : عفو ؟ إنى لا أود هذا ، فسألها الرجل : « ماذا تريدين ؟ »

فقالت : أريد أن ألمسه لأنه أحد الطلاسم التى كانت السبب فى تشويه ذراعى وهدم سعادتى . وقد أشار علىّ بهذا أحد السحرة . فقال الجلاد : أوه . نعم ، نعم . لقد أدركت غرضك الآن . كثيراً من النساء يأتين إلىّ لمثل هـذا الغرض . ثم تشكين ؟

فكشفت له المرأة عن ذراعها

فأخبرها الرجل أن تذهب إلى محافظ السجن وأن تصطحب معها طبيباً ثم تقدم اسمها وعنوانها .

فقالت له : ولكنى لا أريد أن يعلم أحد بهذا

— أتعنين حبيبك ؟

— لا . بل زوجى

— حسن . سأمهد لك الطريق

— ولكن أين هو الآن ؟

— إنه لا يزال حياً فى داخل هذا السجن . ثم رسم الطريق الذى تسلكه ، فانصرفت شاكرة .

وفى الساعة الثانية عشرة من اليوم التالى كانت المرأة جالسة فى إحدى غرف السجن تنتظر تنفيذ الاعدام فى المتهم الشاب

ثم قرئ الحكم وسيق المتهم إلى المشنقة

وفى تلك اللحظة دخلت المرأة بسرعة وقد حسرت عن ذراعها المريضة ، ثم انحنت على الصندوق الذى كان فيه المشنوق ، ولكنها لم تكد تراه حتى خارت قواها وكادت تهوى إلى الأرض وأمسك بها الرجل وهمس فى أذنها قائلاً : « هيا »

فاستجمعت المرأة قوتها ومدت ذراعها ، فأخذها الجلاد ورفع الغطاء عن الجثة وطوق بها عنق المسكين ، فشعرت المرأة بهزة عنيفة وأخذ الدم يندفع إلى تلك الذراع المريضة ، ولكنها لم تكد تلتفت وراءها حتى رأت « رودا » وقد احمرت عيناها من البكاء وأرخت شعورها على كتفيها ، وقد وقف بجانبها زوجها « لوج » ساهماً حزيناً ولكن عينيه لاندمان ، فقال لها فى صوت غاضب أجش : « ماذا تعملين هنا ؟ » ، ثم صاحت الأم : « رودا » يا لك من شيطانة أتحولين بيننا وبين ابننا .. إنك لتمثلين حقاً تلك الصورة البشعة التى رأيتها فى حلمى القديم ، ثم جذبتها من ذراعها العارية ودفعتها إلى الحائط ، فوقعت تحت قدمى زوجها ، فلما رفعها زوجها عن الأرض كانت غائبة عن الرشد

لقد كان المشنوق ابن « رودا » قد اتهم ظلماً فى إحدى الجرائم ، ثم جاء إليـه والده فى الساعة الأخيرة ليشهد مصيره المحتوم . ولم يرد أن يخبر زوجه جرترود بهذا بل قال لها إنه ذاهب إلى قضاء أمر من أموره الخاصة

حمت الزوجة ولكنها لم تبق إلا ثلاثة أيام حتى فاضت روحها لأن دورة الدم كانت أقوى مما تحتمل

أما الزوج فلم يكد يفرغ من دفن زوجه حتى ترك قريته الى بلدة أخرى حيث مات هناك بعد ذلك بعامين وقد أوصى بمعظم ثروته الى أحد الملاجئ تاركا جزءاً يسيراً منها الى زوجه رودا — إن كانت لا تزال حية — إذ كانت قد اختفت من ذلك الاقليم كله . ولكنها عادت بعد ذلك بسنوات كثيرة وقد ابيض شعرها وتخاذل جسمها ولم يبق فيها إلا جبين مغضن يخفى أعمق الأفكار ، وقلب مكلوم يحمل آلم الذكريات

نظمى خليل

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تابع)

وما كانت هذه الحياة المضطربة تخلو من أويقات لها لذتها وصفاؤها ، فقد كان معاشرو ديجنه من الطبقة الراقية وأكثرهم من أرباب الفنون ، فكنا نمضى ليالى عديدة يسود سمرنا الخليع فيها ما يبعد جد البعد عن الفحشاء ؛ وكان أحد الصحاب عاشقاً مغنية مشهورة تشجينا بصوتها الساحر الحزين . ولكم جلسنا إلى المائدة فنسينا ما عليها من طعام مستغرقين فيما يثير إنشاد هذه المغنية فى نفوسنا من حنين ! ولكم درنا بأقداح الشراب ونحن نصغى إلى أحدنا يلقى علينا بصوت عميق رائع بعض مقطوعات من لامارتين ؛ فكنا نؤخذ بمعانيها حتى كأن تفكيرنا حصر فى دائرة منها ؛ فكانت تمر الساعات دون أن نشعر بها ، حتى إذا جلسنا بعدها إلى المائدة سادنا سكوت رهيب وعلقت بأهدابنا الدموع

وكان يتجلى هذا التأثير فى مثل هذه الأوقات على ديجنه بأكثر من تجليه فى الآخرين وهو المعروف بيننا بصلابة خلقه وبرودة طبعه ، فكانت العواطف تتدفق من كلماته ولفتاته كأنه شاعر ساعة نزول الالهام عليه . وما كانت تنتهى نوبة استسلامه لشعوره حتى يبدأ رد الفعل فى أعضائه فينقلب إلى المرح الجنونى كارعاً من الخمر ما يفقده رشده فيستولى عليه روح الهدم والتحطيم . ولكم رأيته يختتم نوبه هذه بقذفه كرسياً إلى نافذة مغلقة يحطم زجاجها بقرقعة تصم الآذان

وكنت أرانى مندفعاً بالرغم منى إلى تشريح أخلاق هذا الرجل ، فكان يلوح لى كأنه فرد من مجتمع غريب لا أعرف له مقراً على هذه الأرض . فما كنت أعلم أكان هذا الانسان مسيراً فى عمله بيأس مريض أم بدلال ولد صغير

وكان ديجنه يبدو بخاصة فى أيام الأعياد كأنه مأخوذ بثورة عصبية فيأتى بأعمال صبيانية يحتفظ فيها بكل برودة خلقه فكان من يراه لا يتمالك من الاستغراق فى الضحك . وقد أقنعنى يوماً بأن أخرج للتنزه معه وحدنا عند الغسق فارتدينا أثواباً غريبة الشكل وقنعنا وجهينا وحمل كل منا آلة موسيقية وذهبنا على هذه الصورة تائهين فى الأحياء الصاخبة محتفظين برصانة أرباب الفنون ؛ وصادفنا فى تجوالنا عربة كان سائقها قد دب فيه النعاس فنام على مقعده فسارعنا إلى حل أربطة الفرسين ثم تقدمنا إليه وصحنا به فأفاق ، وركبنا العربة طالبين منه إيصالنا ، وما لوح المسكين بسوطه فى الهواء حتى ذهب الفرسان خبباً وبقى هو فى عربته مشدوهاً ، وتوجهنا بعد ذلك إلى الشانزليزيه فرأى ديجنه عربة تتقدم نحونا فاعترضها وأمر السائق بالوقوف وتهدده بالقتل إن لم يترجل عن مقعده ؛ وإذ نزل الرجل عند إرادته مذعوراً أمره بالانبطاح على الأرض معرضاً نفسه لأوخم العواقب ؛ ثم فتح باب العربة كأنه قاطع طريق فرأينا شاباً وسيدة استولى عليهما الرعب الشديد ؛ وأمرنى ديجنه بمجاراته فيما سيفعل ، فأخذ يقفز من الباب ليعود

فيقفز من الباب الآخر وأما أتبعه حتى خيل الى من فى العربة والظلام سائد أن المهاجمين عصابة من اللصوص

يقول لك بعض الناس إن الحياة تولى من يبتليها اختباراً ؛ ولعلهم يعجبون فى سرائرهم إذ يصدّقهم سامعوهم . وهل العالم إلا عاصفة إعصار لا يشبه أحدها الآخر ؟ فكل ما فى الحياة يذهب بدداً كسرب أطيار ينتشر فى الفضاء الفسيح ، فما تجد مدينة تتشابه أحياؤها ؛ فمن عرف أحدها يبقى جاهلاً لسائرها ؛ غير أن هذه الأعاصير التى تدور منذ وجود العالم لم تزل تخترقها سبعة أشباح لا تتغير على ممر الأجيال : وأولها يسمى الأمل ، والثانى الضمير ، والثالث الرأى ، والرابع الشهوة ، والخامس الحزن ، والسادس الكبرياء ، أما الأخير فيسمى الانسان

وما كنت وأصحابى إلا كسرب أطيار ، فبقينا سوية إلى أن جاء الربيع فلعب حيناً ، ونركض أحياناً

ولعل القارىء يتساءل أين النساء فى هذه الحوادث وأين هى الفحشاء ؟

وماذا عسانى أقول عن هذه المخلوقات الحاملات اسم النساء واللواتى راودن حياتى كأشباح أحلام ؟ أيمكن للانسان أن يحتفظ بالذكريات من وقائع لم يكن فيها شىء من الأمانى والآمال ؟

وأين أجد هذه الوقائع الآفلة لأثير منها تذكاراً ؟ وهل من شبح أشد صمتاً منك أيتها المرأة العابرة كالظل ؟ وهل من انطباع أسرع إلى الزوال منك فى صفحة الذكريات ؟

وإذا كان لا بد من إيراد شىء عن النساء فلأذكرن منهن اثنتين :

وإليك الأولى

أسألك أولا عما يمكن أن تؤول إليه عاملة بالخياطة لها من العمر ثمانية عشر ربيعاً تتدفق شهوة الصبا من إهابها الغض وعلى خوان عملها رواية كل صفحاتها صبابة وغرام ، وهى لم تتلفن علماً ولا تعرف عن الآداب والأخلاق شيئاً فتقضى حياتها تخيط الأثواب أمام نافذتها حيث تمتد طريق منع رجال الشرطة المرور عليها ليجيئها عند المساء رهط من بنات الهوى الحاملات الأجازات يخطرن عليها ذهاباً وإياباً ، ماتفعل هذه الفتاة بعد أن تكون قطعت أصابعها واستنفدت نور عينيها منذ الصباح حتى المساء عاملة فى رداء أو فى قبعة إذا هى اتكأت عند الغسق إلى نافذتها فرأت ما عملت فيه يداها الشريفتان لكسب قوت من حولها يرتديه قوام فاجرة ورأس عاهرة ؟ . . .

ولكم من عربة تقف أمام بابها كل يوم فتترجل منها فتاة لها رقمها كالعربة التى تستقلها ، وتدخل على هذه العاملة المسكينة لتحدجها بلفتات الاحتقار وتقف أمام مرآتها لتجرب مراراً الرداء الذى انكبت عليه فى سواد الليالى لأنجازه . وتخرج العاهرة من كيسها ستة دنانير يتوهج ذهبها ، وهى العاملة لا تكسب إلا ديناراً طوال أسبوعها ، فلا تملك نفسها من التفرس فيها والتأمل فيما تلبس من حلى ثم تتبعها بأنظارها حتى تركب عربتها وتتوارى

ويجىء يوم ينقطع فيه العمل عنها ويسود الظلام على البيت الذى تظلله الفاقة ، وقد انطرحت فى إحدى زواياه الأم المريضة ، فتفتح العاملة البائسة بابها وتمد يدها قابضة على مجهول يمر على الطريق . . .

هذه هى حكاية الفتاة التى تعرفت إليها . وكانت تحسن العزف قليلاً على البيانو وتعرف شيئاً من فن الرسم ومن التاريخ والصرف ، فكانت كل معارفها على هذا النحو شيئاً يسيراً من كل شىء . ولكم كنت أنعم النظر فى هذه المخلوقة

والأسى يرين على قلبي إذ أرى فيها بداية عمل الطبيعة ونهاية ما يأتيه المجتمع من التشويه ! ولكم شخصت بشخوصي أمامها إلى ليل مدلهم تلوح فيه شرارات ضئيلة من نور عليل

ولكم حاولت أن أشعل بعض الجمرات الخامدة تحت هذا الرماد ، وقد كانت حلة شعرها بلونه ، فكنا ندعوها (ساندريون)

وما كانت ثروتي تسمح لي بأن أعين لها معلمين فتولى ديجنه الانفاق على تعليمها ، ولكنها عجزت عن بلوغ أي نجاح ، فما كان المعلم يتوارى عن نظرها حتى تكتف يديها وتبقى الساعات الطويلة محدقة عما وراء نافذتها . وكانت تمر الأيام على هذه الوتيرة فهددتها يوماً بأنني سأقطع عنها المال إذا هي لم تجتهد ، فبدأت بالعمل دون إبداء أية مقاومة ، ولكن بلغني بعد ذلك أنها كانت تخرج خلسة من البيت ولا يعلم إلا الله إلى أين كانت تذهب ، فرجوتها قبل أن أسرحها أن تطرز لي كيساً ، وقد احتفظت بهذا الكيس مدة طويلة كذخيرة حزينة وأبقيته معلقاً على جدار غرفتي كأنه رمز لكل طلل عاف في هذه الحياة

أما الثانية فهذه قصتها :

وكانت الساعة العاشرة مساء ، وكنا قضينا نهارنا في الرياضة المتعبة فتوجهنا إلى منزل ديجنه وكان هو قد سبقنا إليه لاعداد مايلزم لليلة راقصة . ولما دخلنا البهو رأيناه مزدحماً بالمدعوين وبينهم عدد وفير من الممثلات ، وقد بين لي الصحاب السبب في دعوتهن إلى الحفلات فقالوا إن الرجال يتزاحمون عليهن

وما وصلت إلى القاعة حتى اندفعت مع تيار الراقصين ، وكنت شديد الميل إلى رقصة (الفالس) إذ ليس بين أنواع الرقص ما عاثلها خفة ورشاقة وليس غيرها إلا حركات لا معنى لها يقصد منها انتهاز الفرصة للأخذ بأحاديث لا طائل تحتها . أما (الفالس) فرقصة تتيح لك أن تتمتع بالمرأة التي تضمها نصف ساعة بين ذراعيك وتسير بها بين تصادم الراقصين وهي خفة الجوارح فتكاد لا تعلم إذا كنت تغتصب إرادتها أو تحمي ضعفها . وكم بين الراقصات من يستسلمن إلى قيادتك بخفر تتدفق الشهوة منه فلا تعلم ما يدور في خلدك أشهوة هو أم حذر ، وتقف مرتاباً في نفسك فلا تدري حين تشد بالراقصة إلى قلبك أتترنح ثملة أم تتقصف كالقصبة الضعيفة بين يديك

لا ريب في أن ألمانيا التي اخترعت هذا النوع من الرقص بلاد ما خفيت حقيقة الحب عن أهلها

وكنت أخاصر راقصة رائعة الجمال تنتمي إلى المسرح الايطالي جاءت إلى باريس لتمضية أعياد المرفع ؛ وكانت بزيّ الراقصات في هيكل إله الخمر ترتدي قفطاناً من جلد النمور ، وما كنت رأيت في حياتي امرأة تشبه هذه المرأة في دلالها ، فقد كانت ممشوقة القد ناحلة القوام تنطلق في خطواتها بسرعة ، ولكنك تخالها تنسحب سحباً وهي تتقصف في دلها . ولقد يحسب الناظر إليها أنها تتعب مراقصها في حين أنه لا يحس بها إلا كخيال ميال بين ساعديه

وكانت هذه الغانية مزينة صدرها بطاقة كبيرة من الورد تورثني نشوة أين منها نشوة الراح ؛ وكانت تنطوي على ساعديّ لأقل حركة كأنها من الأماليد عاشقات الشجر ، فكنت إخالها عما فيها من ليونة وعذوبة خلابة وشاحاً من ناعم الحرير يلفني كأذيال الغمام . وكان عقدها المتدلي من عنقها يهتز في كل دورة من دوران الرقص ضارباً على نطاقها المذهب فأسمع له صوتاً خافتاً كحفيف الغصون . وكان في حركاتها من الجلال ما يوقفني منها أمام كوكب

رائع يبتسم لى فأخالها جنية تنشر جناحيها لتعود أدراجها . وكأن الموسيقى الشجية الهائمة كانت تصدح من بين شفتيها وهى مائلة برأسها إلى الوراء تكللها الضفائر السوداء ، وقد أرهق عنقها من ثقلها فالتوى

وما انتهى دور الرقص حتى ارتميت على مقعد فى زاوية القاعة ، وكان قلبى ينبض بسرعة قطعت أنفاسى ، فهتفت قائلا : يا لله مما رأيت ! يا للمسخ الرائع ! ويا لك من أفعى كلها حسن وجمال تعرف كيف تلتف وكيف تتململ بجلدها اللين الأرقط ! ... لقد علمتك حية الجنان المغوية كيف تلتفين على شجرة الحياة وبين أسنانك ثمرة الموت . يا لك ساحرة تتحكمين فى قلوب الناس وتعلمين ما يفعل بهم هذا الدلال الذى يتجاهل قوته ! وهلا تعلمين أنك تهلكين وتغرقين وأن كل من لمسك سيحل به العذاب ، وأن ابتسامك وعبق أزهارك والاقتراب إلى ملاذك يؤدى إلى الموت ... ذلك هو سر الحلاوة فى افتراز ثغرك وتفتق أزهارك ، فأنت تعرفين هدفك عند ما ترسلين معصمك متراخياً على الكواهل

لقد أعلن الأستاذ هاللى حقيقة مروعة حين قال : (إن المرأة عصب البشرية والرجل عضلها) وقد قال هومبولت العالم الجدى نفسه : إن أعصاب البشر يحوطها إشعاع خفى . وأتباع سبلانزانى يعتقدون أيضاً أنهم اكتشفوا الحاسة السادسة . إن فى هذه الطبيعة التى تقذف بنا إلى الوجود ثم تدفعنا إلى الموت وهى هازئة بنا من القوات الخفية ما يكفيها ، فلا نضيفن إلى ما نتسكع به من ظلمات ظلمات أخرى

ولكن أى رجل يعتقد أنه تمتع بالحياة إذا هو أنكر سلطان المرأة عليه ، إذا هو لم يشعر بارتعاش ساعديه بعد أن يكون خاصر امرأة جميلة وراقصها وإذا هو لم ينفذ إليه ذلك الشىء المجهول أو تلك الكهارب المسكرة التى تنتشر فى المرقص حين تتعالى النغمات ويكسف لهب الجسوم أنوار المصابيح وما تنتشر هذه الكهارب إلا من أجسام الحسان فيتكهربن بها أولاً ، ثم تهب منهن كالعبق المتصاعد من مبخرة تتمايل مع الرياح

واستولى علىّ خبلٌ سريع . وما كنت أجهل أن الحب يورث هذا الخبل ، وما كانت هذه أول مرة عرفته ، ولكننى ما كنت أعلم من قبل أن بوسع امرأة أن تدفع بالقلب إلى مثل هذا الخفوق وأن تثير فى المخيلة مثل هذه الأشباح بجمالها وبأزهارها وبثوب مخطط بجلد الحيوان المفترس ، وبحركات دوران اقتبستها من أحد المهرجين ، وبالتفاف معصم بض على كتف ، وذلك دون أن تنبس بكلمة أو تبدى فكرة واحدة كأنها تترفع عن الاعتراف بعزتها وسلطانها

وما كان ما أشعر به من الحب بل من الظمأ المحرق ، فانى لأول مرة فى حياتى كنت أشعر باهتزاز أوتار مشدودة منى على غير قلبى ، فان تجلى هذا الحيوان الرائع لعينى كان قد استنطق وتراً غير أوتار القلب فى أحشائى ، وما كنت أحس بنفسى ما يدفعنى إلى أن أقول لهذه الغانية إننى أحببتها أو أعجبت بها أو حتى لأعلن لها تقديرى لجمالها ، فما كنت أشعر أن على شفتىّ ألا تعطشا للالتصاق بشفتيها لأقول لها : منطقينى بهذين المعصمين المتراخيين وألقى على كتفى رأسك المائل وارشقى بهذه البسمة العذبة شفتى

لقد عشق جسدى جسدها فكنت من جمالها فى سكرة كسكرة الراح ...

ومر بى ديجنه فسألنى عما أفعل حيث كنت فأجبته : من هى هذه المرأة ؟ فقال : وأية امرأة

تعنى ؟ فقبضت على ساعده وسرت به فى القاعة ؛ ولحظت الايطالية أننا نتجه نحوها فابتسمت وإذ تراجعت قليلاً قال ديجنه — آه لقد رقصت مع ماركو ...

— ومن هى ماركو ؟

— هى تلك المدللة الضاحكة هنالك . . . فهل أنت معجب بها ؟

— لا ، لقد رقصت معها وأحب أن أعرف اسمها . وهذا كل إعجابى بها

وما قلت هذا إلا لأننى شعرت بشىء من الخجل ، فتولى ديجنه عنى وذهبت أنا نحو الايطالية ، فاستوقفنى قائلا : رويدك ، ياأوكتاف ! ليست ماركو كسائر البنات ، فهى فى عهدة سفير ميلانو وتكاد تكون زوجة له ، وقد جاءت إلى هذه السهرة مع أحد أصحاب السفير ، غير أننى سأكلمها فى شأنك فلا أدعك تموت إلا إذا لم يكن بد من موتك . سأحاول إبقاء ماركو عندنا للعشاء

قال هذا وتوجه إليها فسادنى اضطراب يعجز بيانى عن تحديده ، وما بدأ بمحادثتها حتى تمشيا سوية وغابا عن عيانى بين ذرافات المدعوين

وكنت أناجى نفسى قائلا : أيمكن أن يصيب حدسى ؟ أتكون هذه المرأة هى من سأحب ؟ ولكن ما لقلبى ولهذا فأن حواسى وحدها تعمل عملها بمعزل عنه

وكنت أحاول بمثل هذا التفكير أن أهدئ روعى . وما طال انتظارى حتى شعرت بيد ديجنه تلقى على كتفى وهو يقول : سنذهب إلى المائدة ، وعليك أن تشبك ساعدك بساعد ماركو فهى تعرف أنك معجب بها وقد تم الاتفاق ...

فقلت : إسمع ، يا ديجنه ، إن ما أشعر به يفوت إدراكى ، فكأننى فى رؤى أشهد (فولكان) فيها يسحب رجله العرجاء ليطبق على (فينوس) ويشبعها تقبيلا ، ولحيته تعبق بدخان مصنعه وهو يحدج بنظراته الزائغة جسم إلهة الجمال البض مستغرقا فى التحديق بها وهى كل ما يملك فيحاول أن يبتسم ويتظاهر بالارتعاش مسرة وحبورا ، ولكنه فى الوقت نفسه يتذكر أباه كبير الآلهة (جوبيتير) الجالس على عرشه فى السماء

وحدق ديجنه فى وجهى ولكنه لم يجب بل قبض على يدى وجرنى قائلا :

إننى جد متعب وأشعر بحزن ، فأن هذا الصخب يقتلنى . هيا بنا إلى المائدة نستعيد قوانا

وجلسنا إلى مأدبة جمعت كل ما لذ وطاب ، ولكننى كنت أشاهدها ولا أتمتع بها إذ كانت شفتاى ترتجفان فى انقباضهما ، وسألتنى ماركو عما بى فبقيت شاخصا كالصنم أسرح أبصارى من رأسها إلى قدميها صامتاً ذاهلاً

وما تمالكت ماركو نفسها من الضحك فضحك ديجنه معها من بعيد وهو يرقبنا . وكانت أمامها كأس كبيرة من البلور تنعكس عليها الأنوار فتتكسر على أضلاعها لتشع بالسبعة الألوان . ومدت يدها التراخية فملأت الكأس بخمرة قبرصية فيها حلاوة الشرق ونكهته وقدمتها الى قائلة :

— هذه لك يا بنى

أخذت الكأس ثم أعدتها إليها قائلا : بل لك ولى

ورطبت شفتيها من الحباب وأعادتها إلى فكرعتها دفعة واحدة وأنا أرسل إليها نظرات حزينة فاتنها معانيها

فسألتنى : أردينة هى ؟

— لا

— أمتعب أنت ؟

— لا

— أتشكو صداعا ؟

— لا

— ما بك إذا إلا هموم غرام

وظهرت على وجهها علائم الجد ، وكنت أعلم أنها وليدة نابولى لذلك نبضت إيطاليا فى قلبها عندما تفوهت باسم الغرام

وفى هـذه الأثناء كانت الدماء تتصاعد إلى الرؤوس والأقداح تتصادم بين الأنامل وبدأت الخدود تصطبغ بلون الخمر فكأنهـا كانت تبرقع أشد الوجوه اصفرارا كيلا تملوها من الخجل حمرته . وكانت الضجة تتعالى وتنخفض كأنهـا نبرات أمواج ، والأحداق ترسل لمعانها إلى كل صوب ثم تذهب تائهة . . . فكأن فى القاعة نسمات خفية كانت تخفق فيها كل هذه الأرواح الهائمة فى نشوتها ، وكل روح تتلمس طريقها إلى سواها

وهبت إحدى النساء من مكانها بين الحشد كما تتعالى على صفحة البحر الساكن أول موجة تتنسم العاصفة فتعلو منذرة باقترابهـا . وقفت وأشارت بيدها لينصت الحضور إليها وكرعت كأسها ثم حولت أناملها إلى شعرها تنثر غدائرها الذهبية على كتفيها وعلى صدرها المتهدج بأنفاسه ، فما أسمعتنا سوى نبرتين مختنقتين وامتقع لونها فجأة فتراخت على مقعدها

وقامت قيامة الحاضرين ، فسادهم الهرج والمرج حتى نهاية السمر ، فما كان لأحد أن يتميز شيئاً وقد اختلط الضحك بالغناء والصراخ

وسألنى ديجنه عما أقول فى هذا فأجبته بأننى لا أجد ما أقوله ، فما لى إلا أن أسد أذنى وأسرح أبصارى ...

وبقيت ماركو ساكنة وسط هذه المعمعة فلم تتكلم ولم تشرب بل أسندت رأسها بيدها وتاهت فى أحلامها . وما كان يلوح على وجهها ما يدل على تأثر أو استغراب ؛ فقلت لها :

— أما تريدين أن تفعلى ما يفعلون ؟ لقد سقيتنى خمرة الشرق فهل لك بتذوقها ؟

قلت هذا وملأت كأسها دهاقا فرفعتها ببطء إلى فمها وارتشفتها حتى الثمالة ، وبعد أن أعادت الكأس إلى المائدة عادت إلى استغراقها

وكنت كلما أدمت النظر الى هذه الفادة أزداد استغرابا لحالها ، فهى لا تسر لشىء ولا يضايقها شىء ؛ بل تفعل ما يطلب منها ولا تقوم بأية حركة من تلقاء نفسها فذكرتنى بتمثال الراحة الأبدية ؛ فقلت فى نفسى لو نفخت روح فى هذا التمثال لما كان يبدو لنا إلا كماركو ثانية

وكنت أقول لها : أأنت طيبة القلب أم أنت شريرة ... أحزينة أنت أم مرحة ... أيروقك أن تحبى ... أتهوين المال واللذات ... وأى نوع منها تفضلين . . . أسباق الخيل أم الخمر أم الرقص . . . أى شىء يعجبك ... وعاذا تحلمين ؟

فما كنت أظفر منها إلا بجواب واحد على جميع هذا ، وهو ابتسامة لا حزن فيها ولا سرور ، كأنها تعنى الاستسلام وعدم المبالاة

وقربت إلى مبسمها شفتى فألقت عليهما قبلة متراخية تشبهها ، ثم رفعت منديلها الى فمها فصرخت بها : ويل لمن سيحبك يا ماركو ...

فألقت إلى بنظرة من مقلتها السوداء ثم رفعتها إلى العلا وأشارت باصبعها بحركة إيطالية لا تقلد ولفظت بتمهل الكلمة الكبرى الخاصة بنساء بلادها : لقد يكون ...

وقدمت أشكال الحلوى والفاكهة ونهض فريق من المدعوين إلى القاعة يدخنون ويلعبون

وما بقى على المائدة إلا العدد القليل . وكانت بعض النساء تستسلمن للرقص والبعض الآخر للنعاس ، وعادت جوقة الموسيقى إلى العزف وتضاءلت أنوار الشموع فاستبدلت بها سواها ، فتذكرت وليمة (بترون) التى ما كانت تنطفىء المصابيح فيها حول من طرحهم السكر على مقاعدهم حتى يتسلل الخدم إلى المائدة ليسرقوا ما عليها من الأوانى الثمينة

ودام الانشاد يتعالى من أفواه الثلاثة المغنين الانكليز ذوى الوجوه الشاحبة

ودعوت ماركو الى الانصراف فنهضت واستندت إلى ذراعى فشيعنا ديجنه قائلا :

— إلى الغد

وخرجت بها من القاعة وكنت كلما اقتربت إلى منزلها يزداد خفوق فؤادى ويستولى الصمت على لحيرتى فى هذه الفانية التى تترفع عن الشهوة كما تترفع عن الكره ، وما كنت أدرك السر فى ارتجاف يدى وهى تلف هذه المخلوقة الساكنة الجامدة

وبلغنا غرفة ماركو فاذا هى على مثالها قاعة تنتشر الشهوة فى جوها ، وكانت منارة بمصباح من الرخام الناصع البياض يرسل فى جوانبها أشعة منكسرة ، وكانت المقاعد كأنها أسرة وثيرة مشدودة بالحرير على زغب الطيور ، وما دخلت إلى هذا المسكن حتى هبت فى وجهى رائحة عطور تركية أصلية مستوردة من القسطنطينية ، وهى أقوى العطور تهييجاً للأعصاب وأشدها خطراً

وقرعت ماركو جرسا فجاءتها وصيفتها الفتية وسارت واياها إلى الخدر وما لبثت حتى انطرحت فيه على سريرها وقد أسندت وجهها بيدها متراخية على عادتها

ووقفت أمامها أنعم النظر فيها وكنت كلما أوغلت فى إعجابى وكلما ازداد انجلاء محاسنها لى يستولى على شعور غريب يبدد ما تثيره هذه المحاسن من شهواتى

ولعلنى كنت مأخوذاً باستهواء من الاشعاع الخفى فتحكم فى ما فى هذه الفانية من سكون وجمود . وانطرحت متمثلا بها على القعد المستطيل قبالة سريرها وتغلغل صقيع الموت فى روحى

إن نبضان الدم فى العروق ليشبه حركة ساعة غريبة لا تسمعك خفقانها إلا فى الليل ؛ ففى طيات الظلام تتوارى مشاغل الانسان حوله فيعود منكمشاً على نفسه ليسمع حركة الحياة فيه

وامتنعت جفونى عن الغمض بالرغم مما تحملت من متاعب نهارى وأحزانه ، وكانت عينا ماركو تحدقان بى فكان كل منا شاخصاً فى الآخر وقد خيم علينا السكون

وقالت : ماذا يشغلك هناك ؟ أما تريد أن تجىء الى جانبى ؟

فقلت : بلى ... إنك رائعة الجمال يا ماركو ...

وسمعت صوتاً كأنه نبرة أنين ، وكان ذلك صوت انقطاع وتر من قيثارة ماركو . وأدرت وجهى نحو مصدر هذه الأنة ، فرأيت أوائل أشعة الفجر تلوح بنورها الباهت ستائر النوافذ

نهضت فأزحت إحدى الستائر فانتشر الضياء فى جوانب الغرفة ووقفت لحظة أنظر إلى السماء فاذا هى مجلوة صافية الأديم

وكررت ماركو دعوتها إلى ، فأشرت إليها بأن تنتظر

وكانت هذه الفادة اختارت لسكناها هذا الحى البعيد عن مركز المدينة احتراساً ؛ وكان لها منزل آخر تستقبل فيه أصدقاء عشيقها . ولعل الغرفة التى كنا فيها ليست سوى موضع خلوة ، فقد كانت تشرف على حديقة اللوكسنبور التى رأيتها منبسطة أمامى

وكنت أشعر فى قرارة نفسى بقوة أغالبها فلا أستطيع التحكم فيها فكأننى منها كالقابض على قطعة من الفلين يريد إغراقها فى الماء فتتململ بين أصابعه وتأبى طبيعتها إلا الانفلات إلى سطحه ، ولكننى عند ما مددت بأنظارى إلى مسارح الحديقة انتفض قلبى بين جنبى فهب التذكار بى يبدد كل فكرة تراودنى . لكم هربت من المدرسة وأنا صغير لألجأ إلى ظلال هذه الأشجار حيث كنت أنطرح وبيدى كتاب من جامحات الأشعار ، وتلك كانت جميع ضلالات صباى وا آسفاه . . . وتنبهت ذكرياتى البعيدة تشارفنى من الأشجار الباسقة العارية من أوراقها وتتطلع إلىّ من خلال الأعشاب الذابلة تحت ظلالها . إلى هنا أتيت مرة للتنزه مع أخى ومعلمى وكنت فى العاشرة من عمرى ، فكنا نرمى بقطع الخبز إلى زرافات الطيور الجاثمة . وهنا جلست مرة منزوياً أتفرج على رهط من الفتيات يرقصن فيرقص قلبى لنغماتهن : نغمات نشيد الأطفال ؛ وهنا أيضاً مررت ألف مرة على الطريق ذاتها فى رجوعى من المدرسة ، وأنا أقذف الحصى برجلى ، وأطارد بذهنى بيتاً من قصائد فرجيل

شخصت ملياً أمام هذه المشاهد فهتفت :

— هذه أنت ياطفولتى ، وها أنت هنا يا إلهى

وأدرت طرفى إلى الغرفة فاذا ماركو نائمة وقد انطفأ المصباح ؛ وكان ضوء النهار قد بدل منظر الغرفة تبديلا ، فظهر لون الورق الملصق على الجدران ، وكنت حسبته فى الليل مستعيراً زرقة الآفاق ، بلون الأوراق الخضراء وقد أحالها الذبول ، ورأيت ماركو ، التمثال الرائع ، منطرحة على سريرها ووجهها ممتقع كوجه الأموات

ولكننى رعشة لم أقو على امتلاكها فكنت أنظر تارة إلى السرير وطوراً إلى الحديقة فأشعر بثقل هائل يخفض رأسى المتعب

وتقدمت بضعة خطوات إلى مكتب كان مفتوحاً قرب نافذة أخرى فجاست مسنداً ساعدىّ إليه ، والتفت بلا قصد أحدق برسالة تُركت مفتوحة عليه ، وهى لا تتضمن إلا كلمات قليلة ، فقرأتها مراراً دون أن أفهم معناها حتى انجلت تدريجاً ، فذعرت منها فجأة ، وأخذت الورقة بيدى أقرأها ، فاذا هى مشحونة بأغلاط الاملاء . وقد ورد فيها :

(لقد ماتت أمس عند الساعة الحادية عشرة ليلا . شعرت بانقباض فدعتنى وقالت لى : لويزون أنا ذاهبة للقاء رفيقى . افتحى الخزانة وخذى منها القطاء المعلق بمسمار فانه كذلك القطاء . . .)

جثوت باكية أمامها فمددت إلى يدها صارخة : لا تبكى . . . لا تبكى . . . ثم أرسلت زفرة . . .)

وكان باقى الصفحة ممزقاً

يصعب على بيان ما فعلت بى هذه الأسطر الفاجعة . قلبت الرسالة بيدى فاذا على ظهرها عنوان ماركو وتاريخ اليوم المنصرم فصرخت : — لقد ماتت . . . ومن هى التى ماتت ؟

وتقدمت نحو السرير منادياً : من هى التى ماتت . . .

وفتحت ماركو عينيها فرأتنى مستنداً إلى سريرها والرسالة فى يدى فقالت :

— هى أمى . . . أفما تريد أن تأتى إلى جنبى . . . ومدت ذراعيها نحوى . فقلت لها : — اسكتى . . . نامى ودعينى هنا . فانقلبت على جنبها لتستغرق فى نومها ثانية

وشخصت إليها حتى تأكدت أنها لن تسمع حركتى وتراجعت رويداً وانسحبت من المكان

(يتبع) فليكس فارس

الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

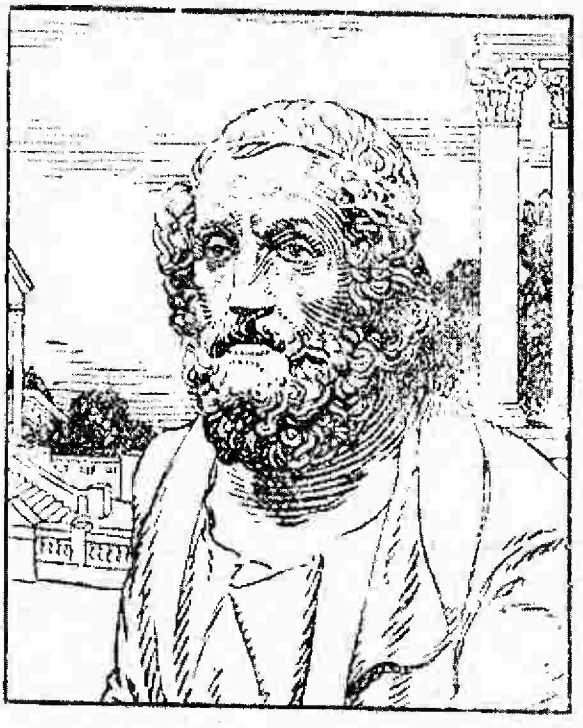

هوميروس

حفل أولمبي

وصبغت أورورا بمثل حمرة الخجل وجنات المشرقين ، فاستيقظ الملك ، وهب أوديسيوس من نومه ؛ وذهبا إلى الشاطىء حيث تُلقى السفن مراسيها ... وهناك ... فوق مقعد حجري أملس ، جلسا يتحدثان ؛ بينما كانت مينرفا تدق البشائر في شوارع المدينة ، وقد بدت في صورة منادي الملك وطيلسانه ، تدعو سادات الفياشيين وشيوخهم إلى مجلس الملك ، للنظر في أمر هذا الغريب الكريم اللاجئ الذي حل عليه ضيفاً ... « كأحد آلهة الأولمب ، برغم ضربه الطويل في عرض البحار »

وازدحم سادات المدينة وأشياخها في قاعة المجلس ، وكانوا يُقلّبون في أوديسيوس نظرات الاعجاب والدَّهَش ، وكيف لا ؟ وهذي مينرفا قد أضفت على صدره الرحب وكتفيه العظيمتين ، وجسمه السامق ، رُواءً عُلوياً من الأبهة والجلال ، كان ينعكس وقاراً ورهبةً في قلوب الفياشيين

ملخص الفصول السابقة

« لم يعد أوديسيوس البطل اليوناني الكبير من طروادة بعد أن وضعت الحرب أوزارها بل ظل يضرب في البحار عدة سنوات مما أطمع أمراء النواحي في زوجته الجميلة ، فحاصروا بيتها وأتلفوا ثروتها وتربصوا لولدها تليماك ليقتلوه ! وهو عائد من أسپرطة وپيلوس بعد أن التقى ملكيهما ، وحدثه أحدهما عن مصير أبيه ... أما أوديسيوس فقد غرقت سفنه ، ونجا هو من الموت ، وسبح إلى جزيرة إحدى عرائس الماء (كاليپسو) التي هويته وشغفها حبه فأبقته لديها زمناً طويلا حتى أمرها زيوس كبير الآلهة باطلاق سراحه ومنحه سفينة يعود فوقها إلى بلده ؛ وقد أبحر على رمث صغير ظل البحر يلعب به حتى إذا بلغ أرض شيرا غرق الرمث وسبح أوديسوس إلى الشاطىء ، وفي الصباح لقي ابنة ملك الفياشيين في جماعة من أترابها يتلاعبن فوق الشاطىء ، فسألها أن تمنحه ثياراً يستر به عورته ؛ ورقت له الفتاة ، فأكرمت مثواه ودلته على بيت أبيها الملك الذي هش له وبش ، وعرض عليه أن يزوجه ابنته إذ لم يكن ثمة حائل دون ذلك ؛ وأرجأ النظر في عودته إلى بلاده إلى الصباح ... »

ولما انتظم عقد القوم نهض أليكنوس الملك ، فقال : ياسادة الفياشيين وشيوخ الأمة ، كلمة مرتجلة ، فاسمعوا وعوا : لقد حل هذا الضيف الكريم الذى لا أذكر اسمه فى بيتى بعد أن شرّق فى آفاق العالم وغرّب ؛ وإنه ليرجو أن تمدوا له يد المعونة فيعود أدراجه إلى بلاده فى كنفكم سالماً ، إذْ طالما كان هذا دأبكم ، إكرام الضيف ، والاحسان إلى الغرباء اللاجئين ، وردهم إلى ديارهم مهما كانت سحيقة آمنين . . . فالبدار إذن . . . هلموا إلى سفائنكم فتخيروا أحسنها حالاً ، وأصلحها لمجالدة هذا البحر ؛ ولتعدوا لها نخبةً ذوى بأس من أصاب فتيانكم عوداً وأشدهم مراسا . . . إثنين وخمسين عدداً من أينع زهرات شباب هذه الأمة . . . ثم تعالوا إلىّ فانى مولم لكم تحية لهذا الضيف ، فلا يتأخر منكم أحد أبدا . . . وليحضر معكم أحب المنشدين دمودوكوس الالهى ، صاحب الألحان الخالدة ، والصوت السماوى الساحر ، فليشنف آذاننا بحلو أنغامه التى لا يقدر عليها إلا هو . . . »

وانصرف الملك فى إثره شيوخ الفياشيين ، وانطلق رسول إلى منزل المنشد دمودوكوس الالهى . . . واختيرت النخبة ذات البأس من شباب الملاحين ، وأعدت السفينة فى مكانها الأمين من اليم ، فنصبت القلاع ونشر الشراع وصفت المجاديف . . . ثم مضى الجميع إلى بيت الملك ، حيث كانت الجماهير الحاشدة تكظ الأبهاء ، وتزدحم فى الدهاليز ، وتملأ الصالة الكبرى . . وجىء بالذبائح . . فهذان ثوران كبيران ذوا خوار . . . وهذى اثنتا عشرة شاةً سمينة ، وتلك أربعة خنازير كِناز[1] ما كادت تذبح وتنتزع أنيابها حتى أخذ الجميع فيما أقبلوا له من طعام وشراب . . . ثم أقبل منادى الملك يقود المنشد الألهى الأعمى ، رخيم الصوت ، صفى ربات الفنون ، اللائى عدلن له بقسطين من خير ومن شر سواء ، فوهبته التطريب المعجز ، وسلبته النور من عينيه العزيزتين . . . وأقيم له عرش مُسَمَّر فى وسط الصالة الكبرى ، عند عمود مرمرى عظيم ، فاستوى عليه ، وأعْلَمه يونتونوس بمكان قيثارته المعلقة فوق رأسه ، ووضع بين يديه سلة من طعام ومزّة[1]

وما كادوا يفرغون من آكلهم حتى رقصت عرائس الفنون فى فم المنشد المطرب ، فأرسل غناء سحر ألباب الناس ، ورقى بها إلى أثير الآلهة فى قبة السماء . . . لقد تغنى هذه الأغنية التى تنظم النزاع الذى شجر بين (أخيل) بن بليوس ، وبين أوديسيوس بن ليرتيس أثناء الوليمة الالهية ، والذى جاءت به نبوءة أبوللو (فى دلفوس) حينما استوحاه أجامنون عن يوم سقوط طروادة فى أيدى اليونانيين

وسكت المغنى ، ودفن أوديسيوس وجهه الساهم فى ذيل ثوبه الأرجوانى الفضفاض خشية أن يلحظه أحد . . . وطفق يبكى . . . ويستغرق فى البكاء ثم كشف عن جبينه ، وسقى الثرى كأساً من خمر صلاة الآلهة . . . ثم عاد إلى بكائه حينما وصل المطرب غناءه ، وكان يرسل عبراته فى كسائه غير ملحوظ من أحد إلا من أليكينوس ، الذى عز عليه ما رأى وما سمع من عبرات ضيفه ، ومن تنهداته ، فقال : « حسبنا ياسادة ما طعمنا وما سمعنا . . . هلموا جميعاً نشهد الضيف الكريم بعض ألعابنا ليذكر فى العالمين أن الفياشيين خير من يجرى ومن يثب ،

(١) كناز جمع مفرده مثله كثيرة اللحم والشحم

(١) حر لذيذ الطعم

وأمهر الناس فى اللكم والمصارعة ! »

ونهض الملك ، ونهض فى إثره كل أضيافه ، وتقدم المنادى فقاد دمودوكوس ، وقصد الجميع إلى ساحة السوق الكبرى ، حيث احتشدت كواكب الشجعان والشباب اليانع من ذوى القوة والفتوة والبأس الشديد ، أتوا من كل حدب لهذا الحفل المشهود ... وفى وسط الحلبة وقف الأبطال آكرون وأوكيال وإلاتريوس ونوت وبرمنيوس ؛ ثم وقف خلفهم الأبطال أنخيال وأنابيسين وإرتميوس وبونت وبرور وأمفيال وتون ... ثم نهض حليف مارس المهوب يوريالوس ، ثم فخر شباب الفياشيين نوبوليد ... وقف كل هؤلاء ... ثم هب أبناء الملك الثلاثة ... لوداماس ولده البكر ، ثم هاليوس ، ثم كليتون الأصغر ، وشارك نفر من أولاء فى سباق الجرى ، فأخذوا أهبتهم ، ثم انطلقوا يثيرون التراب فى أثر كليتون — ابن الملك — الذى شآهم[1] جميعاً ، وتركهم يتعثرون وراءه كما تتعثر الثيران فى إثر البغال ... وتلقاهم النظارة بالهتاف العالى والتصفيق الشديد ، ثم كانت المصارعة التى برز فيها يوريالوس على كل أقرانه ، كما برز أمفيال فى الوثب الطويل ، والاتريوس فى قذف القرص ... أما فى الملاكمة فقد تفوق لوداماس النبيل ابن ملك شيريا ، وكان فوزه مسك ختام المباريات ، ثم نهض لوداماس فقال :

« والآن أيها الأصدقاء نسأل ضيفنا الكريم إذا كان يحذق شيئاً يفخر به من هذه الألعاب ؟ ! إنه ما يزال غريض الشباب ، بادى الفتوة ، مكتنز العضلات ، عظيم مُنَّةِ الساقين والفخذين ، مفتول الساعدين ، وإن له لعنقاً أى عنق ... كل ذلك برغم بدّوات الضنى وأمارات العناء ، وما حطم البحر من جسمه الخصب ، وهل أهلك لجسوم الرجال من أجبال العباب ؟ ! »

وكأنما راقت هذه الكلمات البطل يوريالوس فطاب إلى لوداماس أن يدعو الضيف إلى النزال ، فنهض لوداماس ثانيةً وقال : « هلم أيها الضيف فأرنا هل تجيد من هذه الألعاب شيئاً ؟ إنه ما استحق أن يعيش من لم يعمل بيديه ويسع بساقيه ... هلم ؟ حاول إذن : فيم احترازك هكذا ؟ إنا لن نؤخرك قط ، فالسفينة ممدة والملاحون على أهبة »

وقال أوديسيوس يجيبه : « أتتخذنى هُزُواً حين تدعونى للعب يالوداماس ؟ ! أى لهو وأى لعب وأنا نضو أسقام وطريح آلام ، لا أمل له إلا أن يعود إلى بلاده ، وفى ذلك ما يضرع للملك وللناس ! »

وهبّ يوريالوس يصيد[1] ويقول : « كلا أيها الصديق ... إنى عزيرك ، فسيماك لا تنبىء عن رجل رياضى ، بل أكبر الظن أنك من رجال الأعمال أو حَفَظَةِ المخازن ... أو ... إن لم يخب حدسى ... من أدلاء السفن فى الثغور ؛ ومن يدرى ؟ فقد تكون عيّاراً أو قرصاناً ! ! »

وعبس أوديسيوس وبسر ، وانتشرت فوق جبينه ظلمات من الهم ، وتهدج صوته فقال : « إنك لم تحسن كيف تتكلم أيها السيد ، وإنك لم تبال أن تطلق فىّ لسانك بهجر القول كأنى رجل لا اعتبار لى ... على أن الآلهة — جلّت وعلت —

(١) سبقهم (هامش القاموس)

(١) يجهر بالقول

لم يتفق أن منحت أحداً من العالمين كل آلائها فى وقتٍ معا . . . بسطة الجسم ورجاحة العقل وقوة البيان ... فقد يلوح لك هذا الرجل مُهدّماً محطماً فى حين قد وهبه جوف بياناً متيناً ولساناً مبيناً حتى ليخاب ألباب سامعيه ، وحتى ليرتفع فى نفوسهم إلى مصاف الآلهة . . . وقد تنظر إلى ذاك الرجل كأنما تتدفق فى عضلاته قوى السماء ، وهو لايحسن أن يقول كلمة ... مثلك ... مثلك تماماً ... فلقد أوتيت بسطة فى الجسم ، حتى لتوشك فى ذلك أن تكون مثالاً تقيس عليه الآلهة ، إذا أرادت أن تخلق ماردا جبارا . ولكنك — وا أسفاه ! — لم تؤت بياناً ولا حكمة ! فلقد أثرت ثائرى بكلماتك الغلاظ . . العجاف ! إنى — أيها السيد — كما ذكرت — لا أحسن من هذه الألعاب قليلاً ولا كثيراً ... ولكنى كنت فتاها وفارس حلبتها أيام كنت شاباً يافعاً غض الاهاب ريان الشباب ... أما أنا الآن ! فوا أسفاه ! ! إن حِدْثان الزمان لم يُبق منى ... ولا على ! لقد ذبل شبابى فى نقع الحروب وسوح الوغى ... وفى هذا البحر اللجى يغشاه موج من خلفه موج ... كالجبال ... بيد أننى ... على الرغم مما ينقض ظهرى من ويلات ، سأثبت فى سجل شجاعاتكم قوتى ! فان لما عرفت به من قول السوء لأنياباً تعضنى وتنهشنى . . . أو أدل على قوتى وجبروتى . . . »

وكان إلى جانبه قرص القذف الذى يستعمله أبطال الفياشيين فى مبارياتهم فانقض عليه واحتمله بيده القوية المفتولة ثم دفعه دفعة هائلة كان لها هزيم وقصف ، واستهولها بحارة الفياشيين الشجعان فخفضوا رؤوسهم حتى استقرت بعيداً خلفهم ... وهنا بدت مبزغا بين الملأ فى صورة أحدهم ، وهبت عجلانة تقيس مدى القذفة ، ثم قالت : « ألا أيهذا الغريب ! الأعمى نفسه لا ينكر برهانك الدامغ القوى ! إنه مدى لا يستطيعه أحد غيرك ، فتيه على هؤلاء الفياشيين ! إن منهم من لا يستطيع أن يباريك فى أى من هذه الألعاب فادعهم إليك وما عليك من بأس »

وشاءت الكبرياء فى نفس أوديسيوس حين سمع هذا الهاتف من صميم الفياشيين يطريه ويثنى عليه وينصب من نفسه قاضياً له ، فقال ، وقد انكسرت حدة غضبه :

« هلموا أيها الشباب فاقذفوا هذه القذفة ، أقذفْ أبعد منها وبقرص أكبر وزناً ! ! هلموا ! ! ليأت أقوى ملاكميكم فانى له ! وليقف أشرى مصارعيكم فأنا أخوه ! وليجر معى أسرع عدّائيكم فلن يلحق غبارى ! لقد هجتم ثائرى فهلموا ! إنى أتحداكم جميعاً إلا لوداماس فانه مضيفى وصاحب قِراى ، وليس بى أن أنازل من أكرم مثواى فى دار غربتى ؛ وليس بى من النزق ما يحملنى على شىء من ذلك ... أما غيره فأنا له ، وسيعلم منازلى مهما يكن مبلغ قواى ... إنه ليس من ألعاب الناس ما يعجزنى ... فأنا رب القوس ، وطالما صرعت الألوف من الأعداء تحت أسوار طروادة ، وأبدا ما رمى أحدهما كما رميت إلا فيلكتيتس يوم حاز قصب سَبْقِهما دونى . . . على أنه من أنا ؟ ؟ إننى لم أبلغ من الحول بعض ما بلغ هرقل أو يوريتوس الذى نفس عليه أبوللو مهارته فى الرماية فقتله ... هذا ... وإذا ذكر الرمح السمهرى ، فانى أبلغ به المدى الذى لاتبلغه سهامكم ! ! على أننى لاأطمع أن أبلغ خفتكم ورشاقة حركاتكم — فلقد قاسيت من الأرزاء ما قصم ظهرى ، وصارعت

موج هذا الخضم حتى حطمني وأوهاني ، ولقيت من الطوى ما براني ! ! »

وصمت الفياشيون ولم ينبسوا . ثم تكلم الملك فقال : « عمرك الله أيهذا النازح الكريم لقد جلجلت في آذاننا كلماتك ، فدلت على شجاعة وعنفوان ، وأفحمت هذا الشاب الذي جرح عزتك وأهان كبرياءك أمام الجميع ، ثم سكت عن تحديك .. ولكن تعال فانظر إلى ما نريك من ضروب الخفة وفنون الرقص وفنون الغناء والسبق في العدو ، ومهارتنا حين نسوس الفلك فوق أعراف الموج ورغاء الثبج ، كيما تتحدث بهذا كله إلى أقرانك وبين ظهراني قومك ، وتحكيه لأطفالك . عمرك الله أيها الغريب المكرم إنه لا فخر لنا في ميدان اللكم والمصارعة ، بل غاية المتاع عندنا ثوب مُوَشّى ، وطعام ملوّن ، وقيثار مُرِنّة ، ورقصة خاطفة ، وحمام دافئ وفراش وثير ...... والآن ... هلموا أيها الفياشيون فالهوا أمام ضيفكم والعبوا ، وأروه من رقصكم وشنفوا أذنيه بغنائكم ، فلسوف يتحدث بكل ذلك في الآفاق ، وحسبكم أن يذكر عنكم أنكم أمهر من ركب البحار ! ... هلموا ... ليحضر أحدكم دمودوكوس الإلهي ... يعزف على قيثاره ويتلاعب بقلوبنا بغنائه ... ابحثوا عنه في بعض ردهات القصر ... »

وانطلق منادى الملك يبحث عن المطرب الإلهي ، وانطلق آخر بعد قيثاره ، ثم نهض تسعة فياصل يمهدون أرض اللعب ويهيئون الحلقة ، ويزحزحون الجماهير ... وأقبل المنادى والمطرب يسعى بين يديه ، وجلس في وسط الحلقة حيث أحدق به الولدان اليوافع اليوانع يميسون ويرقصون بسيقان تخطف كمثل خطيف البرق ، بين دهش أوديسيوس وشدة تعجبه ، والمطرب فيما بين ذلك يوقع لهم النغم الحلو ، والموسيقى العالية ... وفرغوا من رقصهم ، فشرع المنشد يتغنى أسطورة مارس ومعشوقته الآلهة سيتريا(١) إذ أغواها رب الحروب المستهتر معسول الكلام ومطلول الغرام فاستلانت له ... وكان أبوللو — إله الشمس — يرقبهما من مركبته الذهبية في علياء السماء ، فطار بالفضيحة المشئومة إلى الزوج التاعس ... ڤلكان ... الذي استطير وثار ثائره ، فراح يصنع أنشوطة كبيرة كالشرك من حلق الحديد المفرغ الذي لا يقوى عليه أحد ، حتى إذا فرغ منها حملها إلى داره ودسها حول سريره ثم ألمّ بالمنرج النجس حيث أوى مارس إلى ڤينوس — الزوجة الآثمة — وكان مارس يغالب في عينيه أخريات غفوة الضحى ، فلمح ڤلكان يطوى الرحب إلى أرض لمنوس — أحب المدائن إلى قلب الإله الحداد ... وطرب مارس أيما طرب ... وأيقظ معشوقته قائلا : « هلمي ڤينوس ... انهضي أيتها الحبيبة ... لقد ذهب زوجك إلى لمنوس أرض البرابرة ... هلمي إلى البيت ... إلى السرير الدافئ ... إلى الحب ... إلى نعيم الهوى ! ! » وهبت ڤينوس ... وانطلق الأثيمان إلى سرير ڤلكان ، وفي قلب مارس غلة ، وملء جوانحه غواية وإثم ... وفي دمه شبق إلى هذه الفاكهة يكاد يقتله ... ولكن ... واأسفاه ! إنهما ما كادا ينطرحان فوق الفراش الوثير حتى انطرحت فوقهما الأنشوطة الهائلة ... وأمسكت بهما إمساكا شديداً ... لم يجدا منه حولا ، ولم يجدا منه مخلصاً ... وكان أبوللو يرقبهما كذلك ، وقد حدث ڤلكان بما رأى .. فعاد الإله الحداد

(١) ڤينوس

على عجل ، ولم يكن قد بلغ شطاشان لنوسى بعد . . .
وكان قلبه يدق ... لا . . . بل كان قلبه يكاد ينخلع فوقف فى البهو الكبير ثم أرسل صيحة مدوّية يستصرخ بها الآلهة : « يا چوف العظيم ! يا آلهة الخلود جميعاً ! أنظروا ! إشهدوا كيف تفضح ڤينوس زوجها مع عشيقها الفاجر مارس ! ولِمَ ؟ لأنه وسيم قسيم قوى ولأنى محطم منهوك موهون ! ذنب من ؟ إنها جريرة من أنسلونى وجاؤا بى إلى الحياة : أنظروا كيف يتمرغ الشهوانيون الفساق فوق فراشى ! لقد تأججت مشاعرهم فهم لا يبالون أن يأكلنى الغيظ أو يقتلنى الحنق ... ولكن لا .. حسبهم هذا الشرك الذى لن يفلتهم حتى يرى چوف فيهم رأيه . . چوف الكبير المتعالى .. والد ڤينوس ! الذى أطلب إليه أن يرد إلى قناطير الهدايا الزوجية التى قدمتها باسم ابنته العاهرة كشروط لاطلاق سراحها ! »

ولم يكد يفرغ من صرخته حتى اجتمع فى بيت چوف ذى الأرض النحاسية جميع الآلهة ...
وكان أول من أقبل نبتيون رب البحار ، ثم تلاه هرمز رسول الآلهة وصاحب القوس ، ثم أبوللو ... ثم غيرهم وغيرهم . . . ولم يحضر من ربات الأولمب واحدة ! فقد احتجزهن الخجل عن شهود هـــذه الفضيحة ! ثم أطل الآلهة يقهقهون ويضحكون . . . ويتلهون بهذا المنظر العجيب ، ويقول بعضهم لبعض : « يا للإثم ساق إلى أوخم العواقب ! ويا للأعرج الأكسح ، يشأى(١) السبّاق المجلى ! ! لقد استطاع ڤلكان أن يمسك بتلابيب مارس ، الذى هو من هو ... ! مارس ! أسرع عدائى السماء ! إن عليه أن يؤدى الغرامة الفادحة للإله الأعرج ... » ... ثم خاطب أبوللو — رب الشعاع الوضاء — هرمز فقال : « يا ابن چوف ، يا رسول السماء ، ألك فى هذه الغفوة الحلوة فى حضن ڤينوس ، على أن تقع معها فى هذا الشرك ؟ » وأجابه هرمز عابسا : « يا رب الرماة ! بنفسى بنفسى ! ! منذا الذى يأبى حضن ڤينوس فى شرك هو ثلاثة أضعاف هذا الشرك ، على أن يرمقه سكان الأرض والسماء ؟ ! » ؛ وتضاحك سكان السماء ، ولكن نبتيون الذى ساءته هذه الحال خاطب ڤلكان فقال : « هلم ڤلكان ففك هذه السلاسل والأغلال ، وإنى زعيم لك كفيل أنه مؤد إليك كل ما تفرض عليه من غرم ! » ... ورفض ڤلكان أن يطلق فريسته ... « لأنه من يضمن ألا ينطلق مارس وهو لا يلوى على شىء ، غير عابىء بكل ما عساه أن يعد ؟ » . وقال رب البحار : « ليطمئن قلبك يا ڤلكان ، فوعزتى وجلالى لئن لم يف مارس لأجزن أنا ، ولأؤدين عنه غرامته ! ! » . فأجاب رب الحديد الصناع : « إذن ، فانى مجيب رجاؤك ، ولن يرد طلبك ! » وتقدم ففك الأغلال عن العاشقين الفاسقين ، وانطلق مارس إلى مأواه بأرض تراقية ، وانطلقت ڤينوس إلى مرتعها الجميل بأرض بافيا — حيث تلقاها رب من أترابها بالبشر والترحاب ، فغسلها ، وضمخها بالطيوب القدسية ، وأسبلن عليها شفوف الصبى وأردية الشباب

* * *

وفرغ دمودوكوس من إنشاده بين تأثر أوديسيوس وتلهف البحارة الفياشيين ، ثم أومأ الملك إلى أبنائه فوثبوا وسط الساحة ، وأخذوا يرقصون فى خفة ، ويتقاذفون كرة غالية من صنع بوليب ، فكان أحدهم يرسلها عالية حتى تدنو من

(١) يسابقه فيسبقه

السحب ، فيثب الآخر فيلتقطها وهو معلق فى الهواء ، ثم يتقاذفونها أحدهم بعد الآخر ، بين تهليل الفتيان وتصفيقهم الشديد . ومر أوديسيوس مما أبداه أبناء الملك فى الرقص ، وأثنى عليهم لأبيهم ، ورجاه فى الذى رجاه فيه من تهيئة عودته ، فتوجه الملك إلى زعماء شعبه وقال : « يا زعماء الفياشيين وأشياخ الأمة ! حرى بنا أن نكرم مثوى هـذا الضيف الذى بدا لكم من وقاره وحكمته وأثير أرومته الشىء الكثير ... هلموا إذن ... إنكم إثنا عشر زعيما ، وأنا الثالث عشر ... فليحضر كل منكم بدرة من الذهب وصداراً مُفَوَّفا فتكون من الجميع هدية سنية له ... أما يوريالوس فعليه هدية كذلك ، وعليه أن يعتذر مما فاه به . » ووافق الكل على ما اقترح الملك ، وأرسلوا رسلهم يحضرون البدَر والصُّدُر ؛ ثم نهض يوريالوس يعتذر ويقدم لأوديسيوس سيفا جُرازاً له مقبض من فضة ، وقراب مطعم بالعاج ؛ ودعا له أن تكلأه الآلهة بعين الرعاية حتى يرى زوجه وولده وبلاده ، بعد كل الذى احتمل من عناء ونصب . وتقبل أوديسيوس الهدية ، ودعا لصاحبه بحياة الأمن والسلم والرفاهية . ثم علق الجراز فوق كاهله الضخم

ووصلت الهدايا الأخرى مع غروب الشمس ، فنهض أبناء الملك يتسلمونها ، ويحملونها إلى داخل القصر ، ووصلت الهدايا الأخر مع غروب الشمس فنهض أبناء الملك يتسلمونها ويحملونها إلى داخل القصر ، حيث أمهم أريتا الملكة ... ونهض الملك فتوجه إلى الداخل كذلك ، وسأل الملكة أن تحضر ثوباً وأكسية ، وأن تعد صندوقا يتسع لهدايا الزعماء ، ملوك البحر ، التى خلعوها على الضيف ؛ وقدم هو هديته ... كأسه الخاصة من الذهب الخالص ، المحلى بأبهج الطرف وأبهى التصاوير ... « ليذكر به ، كلما أفرغ منه الخمر تقدمة الآلهة » . وسألها أن تعد للرجل حماماً ينعشه ، وأن تدع الأثواب والأكسية كيما يتدثر بها

وأمرت الملكة خدمها فأعدوا الحمام ، وأحضرت هى ثوباً فضفاضا فوضعت فيه بدَرَ الذهب وكأس الملك وسائر الهدايا ؛ ثم تلفتت إلى أوديسيوس فقالت له : « والآن أيها السيد هلم فغلق هذا الصندوق فهو لك ، لتكون آمنا عليه إذا غفوت فى السفينة . » ولبى أوديسيوس ، وأغلق الصندوق ثم ربطه بحبل طويل عقده تعقيدا . ثم دعته ربة البيت إلى حمامه ؛ ولله كم ألِفت عيناه حين رأى الثوب الديباجى العظيم ، الذى لم يلبس مثله منذ فارق كليپسو ... ثم اغتسل وتدثر ، وتضمخ بأحسن الطيوب ، وبرز كأحد آلهة الأولمپ ... وبينا هو يطوى الأبهاء إذا صوت جميل ذوغنة يهتف به ... وإذا هى الأميرة الفينانة — نوزيكا — واقفة خلف عمود عظيم وهى تقول : « س . س ..... أيها الغريب النازح اذكرنى دائما ، أنا ، أول من لقيك هنا ! ! » وتبسم أوديسيوس وقال : « نوزيكا ! ! أنت ؟ ابنة أكرم الملوك ألكينوس ؟ ! لك الله ! ألا وحق جوف رب الصواعق لو صحت الأحلام ووصلت سالما إلى بلادى لظللت آخر الدهر أعبدك عبادة أيتها الجميلة العذراء كما أعبد الآلهة أربابى ! » . وبلغ مجلس الملك فاستوى إلى كرسى بجواره ، واجتمع الفياشيون مرة أخرى ، ودارت الأقداح ، وأجلس المطرب الأعمى الآلهى ، فخرشيرا ، قريبا من العرش ، وقدم إليه أوديسيوس جزءاً من شواء حمله أحد النُدُل ، فأقبل عليه المطرب حتى اغتذى ؛ ثم توجه إليه أوديسيوس بالحديث فقال : « كم أنت جدير بالثناء يا دمودوكوس ، بل أنت أولى به من أكثر الناس ! ليت شعرى ! هل

تقفت موسيقاك على عرائس الفنون ، أم أنت قد حذقتها على أبولو نفسه ! لقد أنشدت ما كان من جيش الآخيين كأنك كنت شاهد عيان ، أو كأن شاهد عيان قد قصه عليك ! أنشد امرك ! تحدث عن الحصان الهولة الذى صنعه إپيوس بارشاد مينرڤا ، والذى حمله أوديسيوس الجبار هو وصحبه إلى قلاع طروادة ، ثم اختبأ هو وهم فيه ، فكانوا أول خراب إليوم ! ! تغن ! إنى سوف أحمل اسمك فأنشره فى الآفاق أيها المطرب المعجز الذى لا يباريه إلا عازف موسيقى السماء ، أبولو ! تقدس اسمه »

وتنزل أبولو على لسان المنشد فراح يقص الوقائع الطروادية مذ حرق اليونانيون معسكرهم وبعد إقلاعهم من شطئان إليوم وذاك الانقسام فى الرأى بين الطرواديين عن الحصان الهولة أيقصمون ظهره أم يدقون عنقه أم يحفظونه تذكارا لهـذه الحرب ونصيباً للآلهـة ... على كل حال لقد نقلوا الحصان داخل أسوارهم ليكون القاضى عليهم بمن فيه من هذه النخبة أولى القوة من أبطال الأغريق ... وهكذا قدر عليهم فى الأزل أن يهدموا قريتهم بأيديهم ... تغنى الشاعر المتفنن بكل هذا ، وأثنى أيما ثناء على أوديسيوس الذى كان يكر كأنه مارس ، ومنالايوس الذى كان يفر كالصاعقة ، وعلى بقية الأبطال الصناديد الذين فازوا بالنصر فى ظل پالا — مينرڤا — ربة الحكمة . وكان أوديسيوس ينصت إلى غناء المطرب وإنشاده ، ودموعـه تنحدر غزيرة على خـديه ، والآهات العميقة تشق صدره شقا ... كأنها آهات تلك الأم الرؤوم التى وقعت فوق جثمان زوجهـا البـاســل تبكيه وتنعيه ، وقد سقط فى الحومة يدفع عن مدينته أعداءها ، وقد وقف من خلفها أبناؤها خُضُر يتامى كأفراخ القطا . . . ثم يقبل الأعداء فيخمدون أنفاس هـذه الأم بضربة لازبة ، فتطار مرة إلى زوجها القتيـل ، ومرتين إلى أبنائها التاعسين !! كذلك كان أوديسيوس وكذلك كان يخفى دموعـه فى طرف ردائه فلا يراها أحد إلا الـكينوس الملك الجالس قريبا منه ... وقال الملك متحدثا إلى رعاياه : « أيها الزعمـاء والأشياخ الفياشيون ، أولى ثم أولى أن يفرغ المنشد من إنشاده ، فلقد تصدع قلب ضيفكم ووهنت روحه مما يسمع من هذا القصص الحزين ! لقد أحببناه كأخ ووهبنا له محبتنا وودنا وصافى أخوتنا لا ليحزن أو ييأس ... والآن ! هل يسمح ضيفنا فيذكر لنا اسمه الذى يعرفه به آله ويدعونه به ؟ لقد كتم هـذا عنا ، فهل ولد أحد ولم يحمل اسما ؟ من أنت أيها العزيز ، وما بلادك ؟ وإلى أين تحملك سفينتى ويبحر بك رجالى ؟ لقد منحنا نبتيون — رب البحار — الأمن فى ذلك اليم وذلل لنا غواشيه ، ولـكنه ليس أشق عليه من أن تحمل سفننا أغرابا مثلك لا نعرفهم فنبحر بهم إلى بلادهم !! إنه يغضب علينا ، وقد يغرق سـفننا تشفيا وانتقاما حينما تعود أدراجها إلى بلادنا ، فتهوى إلى الأعماق ثم يسحرها إلى جبل ناتىء فوق العباب ، قِبَلَ شيريا ! تـكلم أيها السيد ! أصدقنا ! من أنت ؟ ومن أى البلاد قدمت ؟ وأين ضربت بطون الركائب ؟ وأى الأمصار شاهدت ؟ وماذا يفجر هذا الأسى فى أعماقك كلما سمعت عن جنود الأخيين وكلما ترددت فى أذنيك أغنيات طروادة ؟ إن الآلهة تحيك من حاضر المرء طيلسان الهموم لغده ! أقتل أبوك ثمة ؟ أم صرع أخوك تحت أسوارها ؟ أم قضى حموك فى ساحاتها ؟ أم أودى أصدقاء لك أحباء فى حلبتها ، كنت تسدهم كبعض أهلك ، أو أعز من أهلك ؟ تكلم ! »

(يتبع) دريني خشبة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر